سافو

شاعرة الحب والجمال عند اليونان

ترجمة عبد الغفار مكاوي

سافو

شاعرة الحب والجمال عند اليونان

تأليف
سافو

ترجمة
عبد الغفار مكاوي

هنـــداوي

سافو

سافو

Sappho

Σαπφώ

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٣٤٦١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة اليونانية القديمة في القرن السادس قبل الميلادي.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور عبد الغفار مكاوي.

المحتويات

الإهداء	٧
حياة سافو	٩
الشاعر القديم	١٩
أغاني الزفاف	٢٥
شعر سافو	٣١
أغاني سافو	٥١
الكتاب الأول	٥٣
الكتاب الثاني	٦٥
الكتاب الثالث	٦٩
الكتاب الرابع	٧١
الكتاب الخامس	٧٣
الكتاب السابع	٨١
أقوال مأثورة	٨٩
ملاحق	٩٩
المراجع	١٠٣

الإهداء

إلى صلاح عبد الصبور.

حياة سافو

لا نعرف إلا القليل عن حياة هذه الشاعرة ذات الاسم الغريب، «بسافو» كما كانت تسمي نفسها، أو «سافو» كما كان يخاطبها شاعر آخر معاصر لها ينتمي إلى بلدها نفسه، وهو ألكايوس.[١] والقليل الذي نعرفه عن حياتها ونستخلصه من أشعارها وأغانيها كما نقله إلينا المؤرخون لا يخلو من الخلط والاضطراب، كما أن الكثير من أحداث هذه الحياة نفسها لم يكن دائمًا كبير الأثر على شعرها وفنها؛ فالعصر الذي ازدهرتْ فيه شهرتها يحدده المؤرخون القدماء تارة حوالي عام ٦١٢/ ٦٠٩ قبل ميلاد المسيح، وتارة أخرى حوالي عام ٥٩٨ق.م. ومعظم الشواهد التاريخية تقول إنها عاشت في الفترة التي حكم فيها ألياتيس والد كرويزوس مملكة الليديين المجاورة لجزيرة لِسبوس التي وُلدت فيها سافو؛ أي في الفترة الواقعة بين عامي ٦١٠ و٦٥٠ق.م. (راجع الشواهد التاريخية فيما بعد).

وسواء كانت شهرتها أو كانت سنة ميلادها تقع فيما حول هذا التاريخ، فقد ولدتْ على حدود القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، في فترة من أهم الفترات في التاريخ القديم؛ مالت فيها حضارات للمَغيب، وراحت شمس حضارة جديدة تتحول ناحية الغرب لتبزغ من بلاد اليونان ومستعمراتها في البحر الإيجي.

في هذا العصر الغنائي — كما يؤثر البعض أن يسموه تمييزًا له عن عصر العلم والفلسفة والديمقراطية الذي سيظهر بعده بقرنين — وُلدتْ هذه الشاعرة. وفي هذه الفترة التاريخية نفسها وُلد بوذا في الهند البعيدة، وحكم نبختنصر العظيم في بابل، ودعا إرميا وحزقيال في فِلسطين إلى النبوة، وحارب بسمتيك فرعونُ مصر الآشوريين، واستولى كيروس

---

[١] انظر الملحق في نهاية الكتاب.

مؤسس إمبراطورية فارس على السلطة، وشرَّع صولون في أثينا، وراح حكماء الإغريق السبعة ينطقون بحكمتهم الخالدة، في حين كانت سافو تنشد أغاني الحب. وليس فيما بين أيدينا من أغاني سافو ما يمكن أن نقول عنه إنها أَلَّفتْه في شبابها؛ فهي إن رجعتْ في بعض الأحيان بالذاكرة إلى صباها وجدناها تروي لنا كيف كانت تجمع الأزهار في باقات، وتذكر لنا ما علَّمتْها إياه أمها «كلايس» من نصائح الأمهات إلى بناتهن، وربما تكون قد ذكرتْ شيئًا عن أبيها (الذي يجهل المؤرخون القدماء كل شيء عن نَسَبه، ويقولون إنه ربما يكون قد مات في أثناء الحروب الطويلة التي اشتركتْ فيها جزيرة لِسبوس مع أثينا للاستيلاء على الدردنيل، ويذكرون في بعض الأحيان أنه كان يسمى سكابا ندرونيموس، وكيف أنه مات وهي بعد في السادسة من عمرها). ولسنا نجد في أغانيها شيئًا عن فرحتها بالحب أو بالزواج، ولا عن سعادتها كزوجة أو أُمٍّ شابة، وإن كنا نعرف تمامًا أنها رزقتْ ابنةً سمتْها على اسم أمها كلايس.

وأشعارها التي بقيتْ بين أيدينا، وهي على ما هي عليه من شذرات مهلهلة، لا تسمح لنا بمعرفة شيء كثير في هذا الصدد. أضف إلى ذلك أن الحب الذي يجمع بين الرجل والمرأة لم يكن أبدًا هو الذي يحرِّك قيثارة الشاعر اليوناني بالغناء. وإذا روى لنا المؤرخون القدماء أنها تزوجتْ من رجل ثري من جزيرة أندروس يدعي كركيلاس، فمن الخير أن نتريث في قبول هذا الخبر، حتى تثبته الاكتشافات التي قد تستجد في المستقبل إثباتًا قاطعًا.

يبدو أن سافو قد انتقلتْ قبل زواجها من مدينة إريزوس التي ولدتْ فيها على الشاطئ الجنوبي من جزيرة لِسبوس إلى مدينة ميتيلينه عاصمة هذه الجزيرة التي اشتهرتْ بالغناء وحب الحياة، والتي أخرجت لليونانيين نفرًا من أشهر المغنين من أمثال ترياندروس وأريون. وكان شقيقها الأصغر لاريخوس يشارك بعض النبلاء في تقديم الخمور إلى الضيوف الذين يحضُرون إلى البيت الذي تشغله قاعة المدينة، ويظهر أن ذلك كان نوعًا من التكريم لا يناله إلا أبناء الشرفاء. أما شقيقها الأكبر خاراكسوس فقد كان له دور كبير في حياتها، كما كان مصدر كثير من عذابها الذي عبَّرتْ عنه في بعض أغانيها. فقد غادر خاراكسوس مدينة ميتيلينه في رحلة تجارية إلى مصر أو على التحديد إلى المستعمرة الإغريقية ناوكراتيس في الدلتا، شأنه في ذلك شأن الكثير من أبناء النبلاء الذين اتجهوا في ذلك العصر إلى التجارة بعد أن كان أسلافهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار. غير أن الشاب النبيل لم يحاول أن يتاجر أو يكسب شيئًا، بل راح ينفق ثروته بلا حساب على فاتنة

مصرية اسمها «دوريخا» يبدو أن جمالها واحمرار خدودها قد أسرا قلبه، فاشتراها وعاد بها إلى وطنه! ومع أن هذا التصرف لا يَعيب الشاب ولا يسيء إلى شرفه، فقد استنكرتْه شقيقته وحاولتْ أن ترده عنه بكل ما تستطيع. كانت ترى أنه يسيء إلى سمعة أسرتها وطبقتها، وأن من واجبها نحو أخيها — الذي تقوم منه مقام الأم والصديقة والمربية — أن تنهاه عنه باللوم والتهديد والرجاء.

ولسنا ندري على وجه التحديد ما انتهتْ إليه جهودها في هذا السبيل. وقد لا يكون لذلك أيضًا من أهمية تذكر إلى جانب ما نلاحظه من تأثير هذه الحادثة على شِعرها. فها نحن أولاء نرى في إحدى أغانيها كيف يحتل عذاب الآخرين مكان العذاب الشخصي، وكيف تنفعل بآلام شقيقها على الرغم من كل ما وجهتْه إليه من تأنيب واعتراض. وها هي ذي تخاطبه كأنها تسترضيه وتطلب منه أن يغفر الذنب الذي اقترفتْه في حقه:

كيبريس،[٢] وأنتنَّ يا بنات نيرويس،[٣]
أعدن إليَّ أخي معافًى!
كل ما يتوق إليه قلبه
حققنه له!
ليجد كل ما افتقده ذات يوم.
لِتَعُدِ البهجة للأحباب الخلصاء.
لتحل النقمة على أعدائه!
رافقيه أنت يا كيبريس إلى الوطن،
أبعدي عنه العواصف الشريرة،
احميه على طريق العودة!

ومع أننا لا نكاد نعرف شيئًا عن حياة سافو العائلية، فنحن نعرف على الأقل أنها كانت زوجةً وأمًّا. وليس فيما بقي لدينا من شعرها بيت واحد توجهه إلى زوجها، كما أن

[٢] نسبة إلى قبرص، وهذا أحد أوصاف أفروديت التي كانت عبادتُها سائدةً هناك.

[٣] هو عند هوميروس «عجوز البحر»، الإله الطيب الحكيم، والد النيريديات أو عذارى البحر الجميلات الرحيمات.

الشواهد التي لدينا عن ابنتها كلايس تأتي من طريق غير مباشر في أقوال الكُتَّاب المتأخرين عنها، أو من إشارة «أوفيد» في الرسالة التي كتبها على لسانها إلى فائون حيث يقول:

ومع ما افتقدته من أشياء تعذبني عذابًا لا حد له،
تضاف إلى بقية الهموم ابنتي الصغيرة.

ولكن هناك بعض الشذرات القليلة التي تتحدث فيها عن ابنتها أو إليها، حيث تقول لها في إحداها إنه لا ينبغي لها أن تبكيَ، في بيت ينشد فيه الغناء:

لأنه ليس من الصواب أن تتردد الشكوى
في بيت عباد ربات الجمال، هذا ما لا يليق بنا.

ونغمة التأنيب هذه على ما فيها من رقة تدل على أن سافو كانت تأخذ عملها في خدمة ربات الفن والجمال مأخذ الجد الخالص، وأنها كانت تحاول أن تبصِّر ابنتها بمسئوليات ذلك العمل. وهي في مقطوعة أخرى تعبر عن حبها لابنتها في هذه الأبيات:

لي طفلة جميلة شبيهة بالورود الذهبية،
كلايس «هو اسمها» … حبيبتي،
فلن الحبيبة بها ولا بأي مملكة تفوقها في البأس والثراء.[٤]

فقد كانت مملكة الليديين المجاورة لجزيرتها في ذلك الحين شديدة البأس بالغة الثراء تحت حكم ألياتيس، ولكن ابنتها كانت أغلى عندها من أغنى ممالك الأرض، والحب عندها — سواء أكان لابنتها أم لإحدى فتياتها — أعلى قيمةً من كل ما يعتز به الناس من متاع «الأرض السوداء».

ظلتْ مدينة ميتيلينه عشرات السنين منذ هذه الفترة المبكرة من الحياة اليونانية مسرحًا للعواصف السياسية والاضطرابات الداخلية، شهدتْ فيها استيلاء الطغاة على السلطة، كما شهدتْ مصارعهم على أثر منازعات طويلة دامية. ولم يكن لهذه العواصف

[٤] أرجو أن يلاحظ القارئ هنا وفي كل النصوص القادمة أن النقط تشير إلى فجوات في النص الأصلي، أما ما يوضع بين أقواس فهو تكملة من المترجمين واجتهاد في فهم السياق.

أن تمر على المدينة بغير أن تترك أثرها على بيت سافو؛ فقد رأت كيف يستولي الطاغية ميلانكروس على الحكم، وكيف يقصيه عنه بيتَّاكوس وأشقاء ألكايوس، وعاشت في ظل الثورات الطويلة ضد ميرزيلوس، وشهدت نفيه عن الوطن ثم عودته إليه وموته في النهاية، وجربتْ كل هذه الأحداث المريرة التي تسجلها أشعار ألكايوس في صورة حية. وقد يدهش القارئ لأغانيها ألا يجد في شعرها أثرًا لذلك كله، وأن يفتش فيه عن حياة الشارع فلا يجد منها شيئًا، وأن يعجب كيف استطاعت أن تحتفظ بعالمها الشعري كالجزيرة الآمنة وسَط هذه التيارات السياسية المصطخبة من حولها، وقد يعزو ذلك إلى نزعتها الإنسانية الخالصة أو إلى طبيعتها الأنثوية التي تجعل المرأة دائمًا أكثر اهتمامًا بمصاير القلوب منها بأخبار الحروب. ولكن الكشوف الحديثة سُرعان ما تصحح رأيه، وتثبتُ له أن الشاعر لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن أحداث عصره؛ لأنه هو المرآة الصافية التي ينعكس عليها هذا العصر. ففي عام ١٩٣٩م عُثر على القصيدة «السياسية» الأولى في شعر سافو، أو بمعنًى أصح: على قصيدة تعبر عن تأثير التغييرات السياسية على حياتها. كما يرجح بعض الشراح في السنوات الأخيرة أن يكون اسم الطاغية مرزيلوس قد ورد في إحدى أغانيها. ومهما يكن من شيء فقد اتفقتْ كل الشواهد التاريخية على أن سافو — مثلها في ذلك مثل صديقها الشاعر المعاصر لها ألكايوس — قد نُفيتْ من وطنها فترةً من الزمن (تقدر على الأرجح بين عامي ٦٠٣ و٥٩٥ق.م.)، واضطُرتْ إلى مغادرة جزيرتها لسبوس وهي في حوالي الرابعة عشرة من عمرها إلى مدينة «سيراقوصة» بصقلية، وقد كرمتْ ذكراها بعد ذلك وأقامت لها تمثالًا. وسواء أكان حكم النفي هذا قد وُجِّه إلى شخصها أم إلى أحد أفراد عائلتها (كزوجها أو أحد أشقائها الثلاثة الذين لا نجد في شعرها أي دليل على اشتراكهم في تلك المنازعات السياسية) فلم يكن من طبائع الأمور أن تمر هذه الفترة التي قضتْها طريدةً عن وطنها دون أن تترك أثرها على شاعرة مثلها. ولا يمنع من ذلك أن يكون التجانس والاتزان هو الانطباع العام الذي نحس به من شعرها، بل لعله أن يكون دليلًا على ما نقول: فقد يكون علينا أن نسأل أنفسنا كم احتملتْ من عذاب وكم كافحتْ من ألم لكَي تحتفظ بالسلام والسكينة في نفسها وفي شعرها؟

وبعد سنوات قضتْها في المنفى سُمح لها بأن تعود إلى الوطن مع ابنتها الحبيبة كلايس، وأغلب الظن أنها عادت إليه في الفترة ما بين عامي ٥٩٠ و٥٨٠ق.م، بعد أن عانى الشعب ما عاناه من ويلات الاضطرابات السياسية، وبعد أن اختار بيتاكوس ليهدي سفينته إلى بر الأمان، وهو الرجل نفسه الذي اتهمه شباب النبلاء بخيانتهم حين تآمروا على الطاغية

مرزيلوس، والذي هاجمه ألكايوس في شعره أمرَّ هجوم، وذكرتْه سافو نفسُها في بعض أغانيها في لهجة لا تخلو من المرارة حين قالت موجهةً الحديث إلى ابنتها:

ما من (نسيج) ملون أحمله لك
يا صغيرتي!
ومن أين لي بمثل هذه الزينة؟
«ألقِ الذنب» على حاكم ميتيلينه،
«الذي جعل الأمور تصل إلى هذا الحد».

وعادت سافو إلى وطنها لتؤدي رسالةً ظلت تنهض بأعبائها إلى آخر نفس من حياتها؛ فقد راحت تتعهد في بيتها مجموعةً من الفتيات من أكرم العائلات في جزيرتها وفي مدن أخرى مثل: ميليه، وكولوفون، وسالاميس، وتلقنهن ما يمكن أن نسميه اليوم «التربية الجمالية» فتدربهن على فنون الرقص والعزف والغناء، وتعلمهن آداب اللياقة والأناقة وإعداد الباقات والأكاليل، وتُشركهن في حفلات الزفاف وفي الأعياد التي كانت تتقرب بها المدينة للآلهة، وفي مسابقات الجمال التي كانت تقام تكريمًا لهم في المعبد الأيولي المقدس على شاطئ الخليج الكبير في الشمال الغربي من مدينة ميتيلينه. ومن العسير علينا اليوم أن ندرك مدى تأثير هذه التربية على نفوس الفتيات، أو نقدرَ قيمتها عند أبناء تلك الحضارة. لم يكن ذلك المعهد الذي أقامته سافو في بيتها هو الوحيد من نوعه في المدينة، بل كانت هناك منافِسات كثيرات لها ذكرتهن في مواضع عديدة من أغانيها، مثل: أندروميدا وجورجو.

ولم تكن مهمة مثل هذا المعهد — إن جازت هذه الكلمة استنادًا إلى تسمية سافو نفسها له بمسكن ربات الجمال «مويزوبولون دوموس»[٥] — هي تخريج راقصات أو مغنيات أو حتى كاهنات يَقمن على خدمة معابد الآلهة، بل كانت مهمتها هي خلق نفوس رقيقة ذكية جميلة تقوم على خدمة ربات الجمال، سواء في الحياة الاجتماعية أو في معبد الإلهة أفروديت،[٦] مما يمكن أن نسميَه رابطة «ثيازوس»[٧] تستبعد الرجال من عضويتها وتكرس

---

[٥] Moisoplon domos.

[٦] Thiasos.

[٧] لم تكن أفروديت إلهة الحب فحسب، أو هي لم تكن كذلك بالدرجة الأولى، فالشهوة البدنية والانفعال الغريزي كانا من شأن إيروس أو العشق، أما أفروديت فكان مجال سلطانها أوسع من ذلك بكثير: فهي

حياتها تمامًا لعبادة إلهة الجمال والاقتداء بمثلها الأعلى، قاطعةً كل صلة لها بالعالم الخارجي. ولم تكن كذلك مهمة سافو مع تلميذاتها وصاحباتها مثل: أثيس وأناكتوريا وجونجيلا وغيرهن لتقف عند هذا الحد، فالحنان الدافق الذي تخاطبهن به في أغانيها يدل على أنها كانت تعطيهن أكثر مما يعطيه المعلم عادة لتلاميذه؛ كانت تعطيهن كل الحب الذي يقدِر على بذله إنسان، وكانت ترتبط بهن برباط العاطفة التي لا تتخلى عن موضوعها وإن تخلى هو عنها أو غدر. ومع ذلك فلم تكن عاطفة حب أعمى، فكم من مرة تلوم وتؤنب وتنصح وتُذكِّر بالعهد القريب أو البعيد، وكم من رقة تبذلها وهي تشجع وتواسي على الرغم مما يثقل قلبها من أحزان. لقد كان من قدر هذه الشاعرة أن تعيش لغيرها، وأن تعطي وتبذل من نفسها ولو كان الجحود هو جزاؤها الأخير. لقد كانت تتابع بقلبها مصير هؤلاء الفتيات حتى بعد أن يخرجن من بيتها، كما تشهد بذلك بقايا كثير من أغانيها، وها هي ذي تقول في إحداها:

وليس من العدل يا ميكا
(أن تنسي صداقتي)،
أما أنا فسوف لا أتخلى عنك.

وهي في هذا البيت الأخير تقول الكثير، لا، بل تقول كل شيء. وعندما كانت تدق ساعة الوداع، وتأتي اللحظة التي تغادر فيها إحدى فتياتها بيتها إلى بيت الزوجية، كانت سافو تكتب بنفسها الأغاني التي تنشَد في حفلة زفافها، كما كانت تعاني من جديد ألم الفراق،

إلهة الأزهار والبحر المبتسم، وقوتها تكمن في السحر الذي تلقيه على المرئيات؛ ولذلك فقد كان خادماها الملازمان لها — كما صورهما فيدياس pheidias — هما: إيروس وبيثو، أو الشهوة والإقناع. ولما كانت أسمى صور الجمال كما تصوَّره الإغريق تتجلى في جمال الجسم البشري، فقد كانت الإلهة التي تمنحه مسئولةً كذلك عن السحر الذي يأخذ بألباب من يراه. فأفروديت أشبه ما تكون بقيمة مطلقة أو بنور سحري يفيض على الحياة والأحياء من حين إلى حين، ويجعل البشر يهيمون بها حبًّا إلى الحد الذي قد يدفعهم إلى ما يقرب من الجنون؛ ولهذا كان الإغريق ينظرون إلى هدية أفروديت كما لو كانت نوعًا من الجنون أو الفتنة التي تذهب بعقول البشر، ويعتقدون أن حزامها يحتوي على فنون من الإغراء، «تسلُب حتى ألباب الحكماء». وقد كانت الفتنة التي يثيرها هذا الجمال الجسدي على اختلاف صوره، والعواطف التي يبعثها في نفوس الفتيات اللائي لم يؤثر الزواج ولا إنجاب الأطفال على حواسهن، هو المادة التي نسجتْ منها سافو أغانيها (س. م. بورا، الشعر الغنائي عند اليونان، ص١٨٩).

وتجرب معنى الزهد والتخلي، وتَحني رأسها لقدر لا مفر من التسليم به، ثم تمضي في خدمتها لربات الجمال، وتمجيدها لأفروديت، ولا تنقطع أغنياتها وأناشيدها لربة الحب والجمال حتى بعد أن تُثقل الشيخوخة كتفيها، وتكسو بالشيب شعرها. إن هذا القدر المحتوم لن يمنعها من أن تخاطب إحدى فتياتها قائلةً:

خذي القيثارة وغننا عن أفروديت،
التي تحمل زهرات البنفسج العطرة على صدرها.

وعندما ماتت سافو — ولسنا نعرف حتى اليوم تاريخ وفاتها — أقيم قبرها على أرض الوطن، وأقامت لها مدينة سيراقوصة التي قضت فيها سنوات النفي تمثالًا، وضربتْ مدينتا إريزوس وميتيلينه صورتها على عُملاتها، وظهر رسمها على كثير من الأواني والزهريَّات التي لا تزال باقيةً إلى اليوم. وكان لسحر شِعرها وشخصيتها أكبر الأثر على كثير من معاصريها، يتضح ذلك في القصائد التي كتبها الشاعر ألكايوس في تمجيدها والتغني بذكرها. وكانت إذا نبغتْ شاعرة في الأجيال التالية وُصفتْ بأنها تلميذة سافو، كما كان الحال مع الشاعرة إيرينا التي عاشت بعدها بقرون عديدة، بل إن الأمر ليبلغ بأحد الشعراء المجهولين في العصور التالية أن يقول: «إني أُحضر لك عسلًا جنَيتُه من أغاني سافو». وأصبح اسمها على مدى القرون صفةً تطلق على أغنيات يحس الناس فيها شيئًا من سحر أغانيها وصدقها؛ حتى أصبحت الأغنية توصف بأنها «سافية» إذا توافرت فيها تلك الخصائص التي توافرت لقصائدها. وهناك من الشواهد التاريخية ما يروي لنا كيف أوضح علماء اللغة من مدرسة الإسكندرية لأحد تلاميذ أرسطو، وهو المؤرخ خاميلون، أنه يستشهد بقصيدة لسافو مع أن «كل إنسان يستطيع أن يرى بوضوح أنها لا يمكن أن تكون لها». وقد استطاع علماء مدرسة الإسكندرية الذين يعرف العالم فضلهم في تنظيم التراث الأدبي الذي وصل إليهم، أن يجمعوا أعمال سافو الشعرية — التي بلغ حجمها فيما يقال ما يساوي اثني عشر نشيدًا من أناشيد هوميروس في ملاحمه — وأن ينشروها في ثمانية أو تسعة كتب على ما يرويه سويداس وشيشرون. وكل ما عُثر عليه حتى الآن من أوراق بردية وما سيُعثر عليه في المستقبل ليس إلا نسخًا من تلك الطبعة التي تولى نشرها علماء الإسكندرية. ولا يُستبعد أن تكون هذه الطبعة الأصلية قد حوت من القصائد ما يمكن الشك في نسبته إليها. وقد يكون من المؤلم حقًّا أن تنصرف شكوك العلماء إلى تلك الأغنية العذبة التي اشتهرتْ نسبتها إلى سافو، بحيث يرجِّح هؤلاء العلماء أنها كانت

أغنيةً شعبيةً ذاعت على أيام سافو أو بعدها بقليل. ومهما يكن الأمر فلن يمنعنا ذلك من الإعجاب بتلك الأغنية التي ما زالت تسحرنا بصدقها وبساطتها وإيجازها، وتكاد وحدها أن تجمع كل ما ننتظره من الشعر الغنائي الأصيل:

الآن قد غاب القمر،
وغابت الكواكب السبعة،
انتصف الليل، ووقت الانتظار فات.
وأنا أنام وحدي.

وإذا كانت سافو قد نَعِمَتْ على مدى الأجيال بكل هذا التكريم، فعُدَّت أحد الشعراء الكلاسيكيين التسعة الذين يرى فيهم النقاد مبدأ الشعر الغنائي وكماله في آن واحد (وهم: ألكمان وستيزيخوروس وألكايوس وأناكريون وأبيكوس وسيمونيدس وبندار وباخيليديس) فقد وُجد بين المؤرخين من نسجوا حولها الخرافات والأساطير، ولطَّخوا اسمها بالوحل في بعض الأحيان. فقد راح بعضهم — مثل الكاتب ديديموس في القرن الأول قبل المسيح، والمؤرخ خاميليون والشاعر هرمزياناكس على أيام الإسكندر — راح يخترع الأقاصيص عن شذوذها الجنسي، ويؤلف النوادر تارةً عن غرامياتها مع الشاعر المعاصر ألكايوس (الذي اعتقد أرسطو نفسه أنه أعلنها بحبه) وتارةً أخرى مع أرشيلوخوس وهيبوناكس وأناكريون، بل إن موتها لم ينجُ من بعض الحكايات الشعبية الخرافية التي نُسجتْ حوله، وكان سببَها في أغلب الظن هو إساءةُ فهم بعض قصائدها. فقد قيل عنها إنها أحبتْ شابًّا يدعى فائون وقتلتْ نفسها من أجله. والواقع أن فائون كان اسمًا آخر لأدونيس معشوق أفروديت الشاب، وأنها كانت تحبه كما كانت تحب أدونيس، روح الربيع والخضرة الذي كان يموت ويحيا في كل سنة، أو الذي كان يكفي أن يحب لكي يموت. ويبدو أن سافو كتبت عنه أغنيةً تعلنه أفروديت فيها بحبها، وأن ذلك قد فُسِّر على أن سافو كانت تحب شابًّا اسمه فائون. وقد عبر أوفيد عن هذا الخطأ في قصيدة بعنوان: «رسالة سافو إلى فائون»، يصفه فيها بأنه شاب جميل، وأن أفروديت حوَّلتْه من الشيخوخة إلى الشباب جزاءً له على خدمة أدَّاها إليها، ويرتبط هذا بقصة أخرى تروي أن سافو حين اشتد بها اليأس من الحب، قد ألقتْ بنفسها من فوق الصخرة الليكودية إلى البحر. وقد يكون مرجع هذه القصة أيضًا إلى وهم شعبي خاطئ اعتقد معه الناس أن فائون كان

يسكن بعيدًا عن لويكاس Leucas وأنه تحول هناك إلى مراكبي. والحقيقة كما تقدم هي أن سافو كانت تراه شبيهًا بأدونيس، وأنها كانت تتحدث إليه كما تتحدث إلى أدونيس.[٨]

وقد استغلت الكوميديا بعد ذلك كل هذه القصص والخرافات فراحت تعرضها في روايات عديدة حملتْ كلها اسم سافو، وراح مؤلفوها يتنافسون في عرض فضائح الشاعرة المسكينة! ولم يكن عجيبًا بعد هذا كله أن تُتَّهم سافو — في زمن لم يعد يفهم شيئًا عن طبيعة «الإيروس» الذي كان يربط بين سافو وبين فتياتها برباط الحب والإخلاص — بتهمة الشذوذ المَشين. ولسنا في حاجة إلى تتبع هذه التهم كلها من هوراس إلى أوڤيد ومارتيال حتى القرن التاسع عشر، ويكفي أن نتذكر أن التهمة نفسها كان من الممكن أيضًا أن توجه إلى شهيد الحكمة العظيم سقراط، لولا أن سخريته الساحرة كانت أقوى من كل التهم التي وُجهت إليه. فكلاهما — الشاعرة والفيلسوف — كان يتأجج في روحه ذلك الحب — الإيروس — الذي يدفع صاحبه إلى تربية الشباب والأخذ بأيديهم على مدارج الحكمة والخير والجمال.

[٨] س. م. بورا، الشعر الغنائي عند اليونان، ص٢٠٢–٢٠٣.

الشاعر القديم

وصف بعض الأقدمين سافو فقالوا إنها «شيء معجز». وجاء المحدَثون فعبروا عن دهشتهم إزاء أغانيها الساحرة البسيطة الصادقة ووقفوا أمامها كما يقفون أمام لغز محير مجهول. وتقدمت البحوث اللُّغوية والتاريخية فلم يعد أحد يتحدث عن لغز ولا مجهول، وتحررتْ شخصية هذه الشاعرة اليونانية القديمة من كثير مما علق بها من خرافات وأساطير، وتبينتْ ملامحها من خلال الشذرات القليلة الباقية من أشعارها، فإذا هي ملامح مألوفة معروفة، تُدهش القارئ حقًّا ببساطتها النادرة، ولكنها تنقُل إليه دقات قلب الإنسان في كل مكان وزمان، حين يملكه الشوق والحنين، وحين يفتنه الحب والجمال.

وإذا كان من أصعب الأمور على الإنسان أن يصف ذلك «الشيء المعجز» الذي يأسِره ببساطته، ويسعده بصدقه، ويتحدث إليه عن أقرب الأشياء إليه وأبعدها عنه فيحس كأنه يعانق الكون كله من خلال الكلمة الشاعرة، فمن الصعب أيضًا أن نطلق العِنان للحماس أو الإعجاب الرخيص بشاعرة الحب والجمال، أو نكتفي بكلمات مثل «ما أروع!» و«ما أجمل!» تزيِّف الحقيقة في الواقع بدلًا من أن توضحها. ذلك أن سافو تقول كل شيء ببساطتها المذهلة، حتى لَتوشك أن تجعل الناقد والشارح والمعلق أشياء سطحيةً وعقيمةً وضارةً. وقد تكون هذه البساطة مما يدهش القارئ الحديث الذي أصبح يتوقع من الشاعر الغنائي «لغةً جديدةً» لا يلجأ فيها إلى الكلمات العادية أو البالية، بل يغوص وراء لغة الحديث اليومية بحثًا عن إمكانيات لغوية جديدة ونافذة، لا تخطئ العينُ أثر بصماته الشخصية عليها. وقد يفتش عبثًا عن تلك الهُوة التي أخذت تتسع يومًا بعد يوم بين لغة الحديث ولغة الشعر، حتى أوشك الشعر في بعض الأذهان أن يكون مرادفًا لكل ما هو غريب وجديد

وغير مألوف، وأن يكون الشعراء أول من يسبب للناس المتاعب والصدمات سواء في حياتهم أو بعد موتهم! حقًّا إن في شعر سافو كلمات جديدةً وصورًا عديدةً من التعبير لا نجدها في لغة هوميروس أو مَن أتى بعده، غير أن هذه الكلمات والصور الجديدة لم تأتِ عن رغبة في الاكتشاف والمغامرة، بل جاءت نتيجة تطور تلقائي في لغتها الشاعرة. وتعبير مثل «حلو-مر» الذي ألفناه اليوم واستخدمته سافو لأول مرة في وصف الحب (الإيروس) لم يكن هو وأمثاله إلا وليد لحظة أحستْ فيها الشاعرة بالشقاء والعذاب، وكانت فيها أبعد ما تكون عن التجريد والتجديد، أو البحث عن المدهش والعجيب.

وتظل البساطة بعد كل شيء هي الطابع المميز لأشعار سافو، وتظل تحمل الكثير من روح الأغنية الشعبية التي تؤثر فينا بصدقها المباشر، والتي لا شك في أن الشعر الغنائي المبكر عند اليونان كان يضرب بجذوره في أرضها الخصبة الأصيلة.

وليس من اليسير دائمًا أن يكون الإنسان بسيطًا حين تكون كل الظروف حوله معقدةً، فقد جربت سافو الاضطرابات السياسية من حولها والآلام الشخصية في حياتها، وعرفت كيف تعيش المتناقضات في الحياة إلى جانب بعضها بعضًا، ونُفيتْ من وطنها ولقيت الجحود من أترابها والتجنيَ من معاصريها ومن الأجيال التي عاشت بعدها. ولكنها عاشت في زمن يقدر البساطة والتواضع حق قدرهما، ويتلقى ما تعطيه يد القدر في شجاعة صامتة، ويجد عظمة الإنسان في احتمال الحياة بكل ما فيها من سعادة أو شقاء.

وعلى الرغم من كل ما قاسته سافو من آلام فلم يكن شعرها هروبًا من الحاضر إلى ماضٍ مثالي أو مستقبل حالم، ولم يكن كذلك فرارًا إلى سكون الوحدة والانفراد، فالشاعر اليوناني القديم لم يكن يقف مثل خَلَفه الرومانتيكي وِقفة الوحيد تحت خيمة السماء الواسعة، ليفتح قلبه للكون كله، أو «يفسر» لغة السماء وينطق بها، ولم يكن يتعبد «نشوة الصمت» أو يتغنى بـ «الطبيعة المقدسة»، ولا كان من الممكن أن تنطبق عليه أبيات هولدرلين المشهورة في وصف الشعراء:

مسالمين، كما تحيا الوردة على النور،
هكذا يحب الشعراء أن يحيوا، على الصورة الجميلة
حالمين وسعداء ومساكين.

لقد كان الشاعر القديم أتعس ما يكون وهو وحيد، وإن تغنى بالوحدة في قصائده فلم يكن غناؤه تمجيدًا لها أو دعوةً إليها، بل محاولة للخلاص منها والنجاة من فزعها

وفراغها. ولم يكن شعره حديثًا وحيدًا مع نفسه، ولا حديثًا مع السحب والرياح والنجوم والأزهار، لقد كان دائمًا نوعًا من الحوار مع من يألفهم من البشر أو الآلهة. وما دام الشعر نوعًا من الحوار مع غيره من البشر فهو لا يمكن أن يكون شعرًا وجدانيًّا أو عقليًّا فحسب، كما هي الصفة الغالبة على الشعر الحديث؛ ذلك أن الشاعر القديم لا بد له من أن يعطيَ، ولا بد له من أن يقدم شيئًا من عنده للطرف الآخر الذي يتحدث إليه دائمًا، لا في صورة حكمة أو موعظة أو رأي في الكون، بل كسبيل إلى التحرر والخلاص. فما من أغنية واحدة من أغاني سافو القليلة التي بقيتْ لدينا إلا نجد فيها هذا الألم المؤثر الذي ينضح به القلب، القلب الذي يتعذب ويشارك في عذاب الغير، ويبحث عن الخلاص عن طريق الغناء، يبحث عنه إلى الحد الذي ينزف معه بعذاب الإنسان. ما من أغنية من أغانيها تنتهي باليأس، ما من أغنية تقف عند فكرة الموت أو تخاطبه كما لو كان هو الغاية الأخيرة والمصير المحتوم. إنها تختم قصيدتها دائمًا بفكرة تعبر عن العزاء، بأمل في الاتزان والاعتدال، بتذكير الإنسان بأن من نصيبه أن يُحرم من الكثير، ولكن من حقه ومن واجبه أيضًا أن يصلي للآلهة لتُنعم عليه بالحب والمشاركة والحنان. وحين كان يبدو لها في بعض مراحل حياتها وكأن الطرق جميعًا قد انسدَّت في وجهها، كانت الشاعرة لا تعدم مع ذلك طريقًا تواصل سيرها عليه. لم يكن طريقَ الفعل والتصميم والتمرد الباطني، كما كان عند صديق معاصر لها هو الشاعر «ألكايوس»، بل كان في أغلب الأحيان طريقًا أشق وأشد وعورةً، ندر أن تبخل عليه إلهة الحسن أفردويت بابتسامتها المشجعة المضيئة.

شيء آخر سيبحث عنه القارئ الحديث في شعر سافو دون أن يجده؛ إنه لن يعثر عندها على وصف للطبيعة مقصود لذاته، كما لن يعثر عليه عند غيرها من الشعراء الغنائيين المتقدمين. فعلى كثرة الأوصاف الطبيعية في شعرها، وتعدد الصور الحية على اختلاف ألوانها من ظلال وعطور، وجداول وزهور، وقمر ونجوم، وبقدر ما تعبر عنه هذه الصور من وجدان متفتح بكل طاقاته للجمال، لا، بل متفانٍ فيه بكليته، بقدر ما نفتقد فيها الإحساس الرومانتيكي بالطبيعة. وليس من العسير أن نفسر غياب هذا الإحساس عن شعر سافو، فحيثما كانت الآلهة حاضرةً في حياة الإنسان، كان من الطبيعي أن يتجه إليها لا إلى الطبيعة ليلتمس عندها العزاء عن أحزانه؛ فالطبيعة لا تصبح مقدسةً إلا حين تبتعد قداسة الآلهة عن حياة الإنسان، ويبتعد الإنسان عنها. إن العلاقة بين حياة الإنسان وبين الطبيعة علاقة ارتباط قوي لا تكاد الشاعرة هنا — مثلها في ذلك مثل الشاعر الشعبي

المجهول في كل زمان — تفصح عنها أو تجد نفسها في حاجة إلى التعبير عنها. إنها تبدأ إحدى أغانيها بوصف الطبيعة فتقول «٤د»:

كل النجوم من حول القمر الجميل
تُخفي وجهها المضيء من جديد،
حين يلقي البدر نوره الفضي فوق أرضنا السوداء.

ولسنا ندري كيف تمضي هذه الأغنية الناقصة بعد ذلك، على الرغم من أن الجزء الوحيد الذي بقي لدينا منها بعد ذلك يصف القمر بأنه فضي. ولكننا نستطيع مع ذلك أن نقطع بأن الشاعرة لم تختَرْ هذه الصورة عن جمال ليلة مقمرة من أجل الجمال الطبيعي في ذاته، بل لا بد لنا من أن نفترض أنها قد تحدثتْ في الجزء المفقود — على نحو من الأنحاء — عن حياة الإنسان، سواء أكان هذا الحديث بقصد المشابهة بينها وبين صورة من صور الطبيعة أم لم يكن كذلك. وإذا كان من الصعب أن نستخلص من هذه الأبيات شيئًا عن حياة سافو نفسها، فليس من العسير مع ذلك أن نحس بأنها لم تكن بعيدةً عن شجرة الحياة والأحياء، وأنها كانت قريبةً من قلب الطبيعة النابض، الذي لا يزال يُتم دورته الحية في صمت وهدوء. أما الطبيعة التي تتكلم مع إنسانِ ذلك العصر الذي يكشف لنا شعرُ سافو عنه، فلم تكن بالأم الرحيمة ولا بالطاغية الرهيبة، والزمن الذي عاشت في ظله لم يكن تلك القوة المعتمة التي يحس الإنسان بأنه ملقًى في خضمها بين الغرق أو النجاة. البشر والآلهة وحدهم كانوا مركز إحساسه وفكره، ومصدر عذابه وفرحه. لم يكن الإنسان يسأل عن حقيقة العالم وأصله ومصيره، كما سيفعل عندما تزدهر الفلسفة بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان، ولم يكن كذلك في حاجة إلى السؤال عن الله أو الآلهة، فقد كان الإنسان هو شغله الشاغل، الإنسان بوجه عام وعلى نحو مطلق. كانت إنسانية ذلك العصر المبكِّر تبحث عن قدرها، فراحت تحاول أن تفهم نفسها. والحكمة المشهورة: «اعرف نفسك» التي تنسب إلى طاليس أحد الحكماء السبعة القدماء، والتي يقال إنها كانت مكتوبةً على مدخل معبد أبوللو في دلفي، كانت موضوعةً في الوقت نفسه على باب ذلك العصر الذي نسميه بالعصر الشعري. فلم يحدث أن شارك عصر من العصور من قبل أو من بعد في كل ما تفرضه هذه الحكمة على الإنسان من مشقة البحث عن الذات والتعرف على مكانها من الطبيعة والمجتمع والتاريخ. فالوجدان يبحث عن نفسه في تلك الصورة الفنية التي تعبر وحدها عن روحه، ألا وهي الشعر الغنائي، كما عبرت الملحمة عن عصر سابق، وكما

ستعبر التراجيديا عن عصر لاحق، إلى أن تذبل هذه الشجرة أيضًا لتتولى الفلسفة قيادة الإنسان على الطريق. في الشعر الغنائي كان الإنسان يجد التعبير عن يأسه وأمله، عن فكره وشعوره، ولم يكن الشعر في هذه المرحلة المبكرة من الحياة اليونانية زخرفًا للتسلية أو الترويح عن النفس، لم يكن «أدبًا» كما نسميه اليوم، ولا كان بالأولى «فنًّا جميلًا»، بل كان شيئًا يجب أن يؤخذ مأخذ الجد الخالص. كان نبضَ الحياة الروحية والعقلية التي كانت تنعكس على مرآته. لعل الشعر لم يصل إلى هذه المنزلة بعد ذلك أبدًا، ولكن حسبه أنه قد وصل إليها ذات يوم.

أغاني الزفاف

ظلت أغاني الزفاف (أبيثالاميا) تحتل منزلةً مهمةً بين أشعار سافو، سواء في طبعتها السكندرية أم في ترجماتها الأوروبية. وهي أغانٍ كانت تُنشَد أمام خِدر العروسين (ثالانوس) وتمتد مع حفل الزفاف إلى آخر الليل. وكانت تلقيها في معظم الأحوال جَوقة من الفتيات (يصح أن نفترض أنهن كن ينشدن تحت قيادة واحدة منهن) أو جَوقة من الفتيات وأخرى من الشبان على سبيل التبادل، في تنافس مرح لا يعرف المنتصرين ولا المهزومين. ولسنا نعرف اليوم على التحقيق ما كان يجرى بالتفصيل في حفلات الزفاف في تلك الفترة المبكرة من حياة اليونان — وإن كان العلماء يعرفون أنه كانت توجد على جزيرة لِسبوس كلمة خاصة للعروس[١] وأخرى للهدايا[٢] التي تهدى إليها من أقاربها — ومع ذلك فيمكننا أن نتصور أنها كانت تشبه في بعض الوجوه حفلات الزفاف التي نعرفها اليوم في بلاد اليونان أو في بعض بلاد البحر الأبيض المتوسط، وأنها كانت حفلات شعبيةً تُنشَد فيها الأغاني الشعبية وتنطلق فيها الروح الشعبية على سجيتها. وما زال موكب العروس في طريقه إلى بيت الزوجية يحيط به حاملو المشاعل من الجانبين، وتشارك المدينة أو القرية كلها فيه بالمرح والغناء والتبريك، صورة حية في قرانا المصرية تشبه من قريب ما نجده في وصفها عند هوميروس وهزيود وسافو.

وأهم ما في هذه الأغاني أنها تكشف لنا عن مشاعر سافو نحو تلميذاتها وصاحباتها، وعن حقيقة العلاقة التي كانت تربطها بهن. وتصل هذه العلاقة إلى ذروتها عندما تتأهب

---

[١] تاليس Talis.

[٢] أثريماتا Athrermata.

العذراء لمغادرة بيت سافو إلى عش الزوجية. فالشاعرة تحس عندئذٍ بألم الفراق الذي يحرك أصابعها بأرق أغانيها الذاتية، كما يفرض عليها واجبًا آخر فيه من القسوة بقدر ما فيه من القداسة، يجعلها تكتب أغنيةً تُنشَد في حفل الزفاف، وتلقيها بنفسها أو بالاشتراك مع جَوقة الفتيات.

ومن الأغنيات التي تعبر عن الحالة الأولى أغنية مشهورة يضعها بعض المفسرين في الكتاب الأول ضمن أشعارها الخالصة، ويضعها البعض الآخر بين أغاني الزفاف، وأغلب الظن أن الأغنية تصف العريس الجالس إلى جانب عروسه في حفل الزفاف:

يبدو لي شبيهًا بالآلهة،
ذلك الرجل الذي يجلس إلى جانبك …

وقد عدها القدماء أغنيةً عاطفيةً خالصةً، كذلك فعل لونجينوس، وبلوتارك، والشاعر الروماني كاتولوس الذي ترجمها بتصرف وأهداها إلى حبيبته لسبيا. وأما المحدَثون فقد نظروا إليها نظرةً مختلفةً، فهي عند بعضهم[٣] أغنية ذاتية كتبتْها سافو بمناسبة زواج إحدى تلميذاتها، وعبرتْ بها عن عواطفها وهي ترى تلميذةً عزيزةً عليها ربما للمرة الأخيرة قبل رحيلها إلى بيت الزوجية، ويختلف البعض الآخر[٤] حول تفصيلات لغوية لا أرى داعيًا للتعرض لها في هذا المقام، ولكنهم يتفقون معهم على أنها أغنية من أغاني الزفاف، ففي حفلات الزفاف وحدها يُسمح للفتاة بأن تجلس إلى جوار الرجل وأن تتحدث معه بحرية. وقد يجوز أن الفتاة كانت تضع قناعًا على وجهها، وأن حفل العرس كان يجرى في بيت أبيها، بحضور سافو قائدة الجَوقة التي ستنشِد الأغنية أمام العروسين. غير أن سافو وهي تكتب الأغنية قد فصلت بين هذا الواجب الذي كان عليها أن تقوم به إزاء إحدى تلميذاتها وبين حياتها ومشاعرها الخاصة وهي تتذكر ما يعنيه حفل الزفاف من فراق لإحدى حبيباتها. إنها تصف الزوج الذي يجلس إلى جانب فتاتها فتقول عنه إنه «رجل» كأي رجل آخر من أبناء الفناء، ولكنها لا تحس نحوه بشيء من الغَيرة، فها هي ذي تعود فتقول إنه يجلس إلى جوار العروس، وإن هذا وحده يجعله شبيهًا بالآلهة.

---

[٣] مثل: فيلا موفيتس وبرونو سنيل.

[٤] ومنهم بورا، ص٢١٧.

فالأغنية إذن تعبير نادر عن عاطفة ذاتية جربتْها سافو، ليست هذه العاطفة حبًّا، على الرغم من دقة الوصف لحالتها الجسدية، وليست كذلك غَيرةً ولا حقدًا؛ لأنها تصف الرجل صراحةً بأنه شبيه بالآلهة، وليست تعبيرًا عن مرارة الفراق، فما من كلمة واحدة تذكر فيها هذا الفراق، بل هي وصف بسيط للعواطف التي جاشت في قلبها في حضرة المحبوب، وصفٌ لا نستطيع أن نحدده أو نجد له اسمًا. فهذه العواطف تعبر عن نفسها في صورة جسدية، في ارتعاش القلب، واحتباس الصوت، وتصبب العرق، وسريان النار تحت الجلد، واضطراب الرؤية أمام العينين. وتصل هذه الظواهر الجسدية إلى قمتها حين تقول في نهاية القصيدة إنها قريبة من الموت، فتضفي على اللوحة كلها نغمةً طبيعيةً صادقةً. وتشبيهها لنفسها بالميتة ليس من قبيل المبالغة أو «الكليشيه» الذي شاع في الشعر الهليني بعد ذلك، بل تعبير نستطيع أن نؤمن بصدقه وإخلاصه، تحت تأثير انفعال جارف جعلها تقول في موضع آخر:

تتملكني الرغبة في أن أموت.
وأرى شواطئ آخيرون المندَّاة
المغطَّاة بأزهار اللوتس.

وهو كذلك تعبير عن الضياع الذي أحست به في مثل هذا الموقف حين قالت في موضع ثالث:

أود صراحةً أن أموت.

هذه الرغبة في الموت تجعل لسافو مكانةً فريدةً بين شعراء الإغريق، الذين نظروا في جملتهم إلى الموت على أنه شيء بعيد وكريه. ولعل طبيعة حياتها التي كانت سلسلةً طويلةً من عذاب الفراق للأحباب هي التي أجرت على لسانها هذه النغمة اليائسة الغريبة على أبناء ذلك الزمان. وقد لا أبعد كثيرًا عن الصواب إذا قلت: إن في هذه الأغنية دليلًا على أن صدق التجربة هو وحده الذي يستطيع أن يصنع المعجزات!

مهما يكن من شيء، فلا بد من أن سافو كانت تؤدي دورًا مهمًّا في مراسم الزفاف، يعطيها الحق في أن تقول عن العريس إنه يبدو لها شبيهًا بالآلهة. فقد كانت — فيما يقول عنها البلاغيُّ هيمريوس الذي رتب أغاني الزفاف — تقوم بقيادة جَوقة المنشدات، وتغني على القيثارة أغنيةَ الزفاف التي كتبتْها بنفسها، وتدخل إلى مخدع العروسين فترتب

الفراش، ثم تنادي الفتيات أن يدخلن معها، فتهيئ منهن مَن تمثل أفروديت في عربتها التي تجرها ربات النعمة والجمال «خاريس»[٥] وتزين شَعر العروس بأزهار الهياسنت (السنبل البري أو الزعفران) وضفائر الفتيات وأجنحتهن بالذهب، وتجعلهن يسرن أمام العربة ويرفعن أيديهن عاليةً بالمشاعل.

كان حفل الزفاف يبدأ عادةً بمأدبة يحضرها العروسان، تقام في بيت أحدهما، وكان لهذه المأدبة طابع ديني، فوالد العروس يقدم القرابين لآلهة الزواج ومن بينهم أفروديت. وكان الحفل ينتهي عادةً باصطحاب العروس التي تجلس في عربتها إلى جانب أفضل الرجال إلى بيتها الجديد. ويصف لنا لونجوس — الذي عرف شيئًا عن العادات المنتشرة في جزيرة لِسبوس كما قرأ شعر سافو — إحدى هذه الحفلات بقوله: «حين يقبل المساء، يصطحبهما الضيوف إلى مخدع الزوجية، بعضهم يعزف على الناي والبعض الآخر على المزمار، وفريق منهم يتقدم العربة حاملين المصابيح والمشاعل في أيديهم، فإذا بلغوا عتبة غرفة الزوجية بدءوا يغنون أغنية زفاف في أنغام خشنة غليظة كأصوات المعاول والفئوس!»

وهناك نوع آخر من أغاني الزفاف لا نجده إلا في شعر سافو، كانت هذه الأغاني تقوم على حوار يدور بين العروس وشخص آخر يمثل العُذرية. ولم يبقَ لنا من الشواهد عليها سوى هذين السطرين:

العروس:

أيتها العذرية، أيتها العذرية، إلى أين هربتِ وذهبتِ عني؟

العذرية:

لن أعود أبدًا، أبدًا لن أعود إليك.

ولا بد من أن هذه الأغنية كانت تستند إلى أصول شعبية، غيرتْ سافو في شكلها وأضافت إليها كما فعلت في سائر أغانيها. وهي تذكِّرنا بحوار آخر تتقدم فيه سافو وفتياتها بالشَّكاة إلى أفروديت، باكيات على موت أدونيس. ولا بد من أن العروس كانت تقوم بغناء الجزء الخاص بالعذرية.

[٥] الخاريتيس إلهات ثلاث تصور الأساطير اليونانية فيهن الحسن والرقة والمحبة. اختلف حول أصلهن، وربما كن من إلهات النبات والخضرة.

وقد تكون هناك بقايا أخرى من هذا النوع المفقود من أغاني الزفاف، مثل الشذرة التي تقول فيها:

أما زلتُ أحنُّ إلى العذرية؟

الذي يبدو أنه بقية كلام مفقود على لسان العروس، أو الكلمات التي تقول فيها:

سأظل دائمًا عذراء …

والتي يبدو أنها جاءت على لسان عروس تحتج فيها على مصيرها، أو تحاول أن تحميَ تاجها الأخضر من اغتصاب الرجال. ومع ذلك فإن الشواهد الباقية على هذا النوع من أغاني الزفاف نادرة، ولا بد من انتظار اكتشافات جديدة قد تَهدينا إلى نماذج أخرى منها.

لم تبقَ لنا أغنية واحدة كاملة من أغاني الزفاف عند سافو، ولكن من المدهش حقًّا أن نجد فيها مزيجًا رقيقًا من الروح المدنية المهذبة والروح الشعبية التي تسمح لنفسها في مثل هذه المناسبات بقدر كبير من حرية التعبير، فلا شك في أن حفل العرس لم يكن يخلو من كثير من العبث الذي يتبادله أهل العروسين أو أصدقاؤهما، وأن بعض الألسنة الطويلة لم تكن تترك العريس «الفلاح» في حاله، ولا كانت تترك حارس الخدر العملاق قبل أن تتندر بقدميه الغليظتين أو بملامحه العابسة! ومع ذلك فلا بد من أن «الشهامة» كانت تقوم بدورها في مثل هذه الأفراح، وأن الروح الشعبية كانت تعبِّر عن نفسها أجمل وأصدق تعبير. وكل هذا يزيدنا حزنًا على ضياع هذه الأغاني، ولو أن أغنيةً واحدةً منها سلمتْ من الضياع لرأينا فيها ذلك الكنز الشعبي الصافيَ الذي يجمع خير ما في الشعر الغنائي على مر العصور. وتزداد الحسرة إذا نظرنا إلى إحدى هذه الأغنيات التي تشبِّه فيها سافو العروس بالتفاحة الحلوة، المتوردة بالحمرة على أعلى غصن، نسي القاطفون أن يجنوها، لا لم ينسوا — كأني بالشاعرة تستدرك حتى لا تتورط في سوء الأدب! — بل لم يستطيعوا أن يبلغوها. إن الشاعرة تبدو وكأنها تتوقف في منتصف القصيدة لتلتقط أنفاسها، ربما لتجد تعبيرًا أفضل أو لتبحث عن صورة أكثر حيوية، أو تبالغ في التصعيد بالنغمة إلى أقصى مداها: «عاليًا، على أعلى غصن». ولعل ذلك هو سر هذه الخفة والرشاقة التي تميز أغانيها في الزفاف، وتجعلنا لا نكاد نقرؤها حتى يخيل إلينا أننا نستمع معها إلى رنين قيثارة أو إيقاع صُنُوج كانت تصاحبها.

شعر سافو

كلما عشنا مع شعر سافو لم نستطع أن نتبين فيه الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال الشعري. والأغنية التي توجهها إلى صديقتها البعيدة «أريجنوتا» أو «أثيس» كما يقول بعض الشراح مَثَلٌ يوضح لنا كيف تتحول الصورة عندها إلى كِيان حاضر. إنها أغنية من تلك الأغنيات التي يمكن أن نقول عنها إنها شخصية إلى أقصى حد، تتحدث فيها الشاعرة فتكشف عن نفسها بنفسها؛ فهي أغنية فردية، شأنها شأن معظم أغانيها، وليست أغنيةً تؤديها الجَوقة، ولا يمنع هذا من أن نتصور أنها كانت تُنشَد في مناسبة من المناسبات كالاحتفال بعرس أو بعيدٍ تكرم فيه الآلهة.

كانت أريجنوتا إحدى تلميذات سافو اللائي تربَّين في كنفها وتلقَّين عنها أغلى ما يمتلكن من فنون الجمال وما يعتز به الإنسان من حب ووفاء. وتزوجتْ أريجنوتا فخرجتْ من بيت سافو إلى بيت زوجها في مدينة ساردِيس Sardies عاصمة ليديا، وها هي ذي تقيم بين نساء ليديا وتتفوق عليهن بجمالها «مثلما يفيض القمر بنوره على كل النجوم». غير أن الصديقة البعيدة — فيما تقول سافو — لم تنسَ صديقتها، بل ظلت تعيش معها بروحها على الرغم من بعدها بالجسد عنها، «فما أكثر ما تبعث إلينا بأفكارها عن ساردِيس». إن سافو لا تفشي سر هذا اليقين (أهو يقين يا ترى أم عزاء عن الفراق يلجأ إليه الشعراء؟!)، وهي ليست في حاجة لأن تفشيَ سره، فكلمات القصيدة توحي بأنها تؤمن بأن ثمة شيئًا مشتركًا بينهما يوحد بينهما على الرغم من بُعد المكان، وأن إيمانها أقرب إلى يقين البداهة التي لا تحتاج إلى دليل أو برهان. إنها تعرف أن الصديقة قريبة منها، لا، بل تحيا معها، وهي تعرف ذلك معرفة القلب، وكأن الروح هنا لا العين هي التي ترى، وما قيمة الحقائق الخارجية التي يحتويها الزمان والمكان إلى جانب هذه المعرفة الباطنة التي لا تخطئ؟

إن الصورة تبدأ بتشبيه الصديقة الغائبة بالقمر الذي يفيض بنوره على كل النجوم، ثم يتكثف الوصف الطبيعي شيئًا فشيئًا وتنمو الصورة وتتشكل بالتدريج حتى نراها ماثلةً أمامنا وكأنها عيان حاضر أو واقع مشاهَد، فضوء القمر يمتد على البحر المالح ويغمر الحقول والمروج المزدانة بالورد، والندى المنعش يسقط، وأزهار اللوتس العسلي تزدهر، وكأن ألوان الطبيعة وعناصرها تتقدم خطوةً خطوةً نحو هذه الصورة لتسكب فيها النبض والأنفاس:

رقيقة وجميلة تعيش هي الآن بين نساء ليديا،
مثلما يغمر ضوء القمر بأصابعه الوردية
كل النجوم
بعد أن تغرب الشمس،
ويفيض نوره على البحر المالح
وعلى مروج الورد،
وهناك ينزل الندى وتزدهر الزهور ... إلخ.

وبعد أن ينتهي هذا الوصف للبيئة التي تعيش فيها أريجنوتا، تظهر الصديقة الغائبة أمام سافو. إنها تراها بعين روحها قلقةً تتجول هنا وهناك، ترنو ببصرها وراء الشاطئ البعيد، ويثقل الحزن على صدرها فتُطْلق صرختها اليائسة: «تعالَيْن إليَّ!» لكن صوتها يضيع صداه دون أن تسمعه أذن؛ فليس إلا البحر الهادر بين الشاطئين:

غير أن البحر الهادر الذي يفصل بيننا
لا يحمل النداء إلينا،
ما من أحد يسمعه.

وإذا صح أن الأغنية تتوقف هنا — إذ إن البقية الباقية منها بعد ذلك لا تكاد تضيف إلى الصورة السابقة شيئًا ذا بال — فإن هذه الأغنية تشبه أن تكون اعترافًا صارخًا بأن الطبيعة لا تكترث بالإنسان ولا تعبأ بما يجيش في قلبه، بل إنها تهزأ بأحلامه وأشواقه، وتخنقها في صدره بكل ما تملك من قوة وجبروت. وقد ظن الباحثون — قبل أن تُكتشف بقية الأغنية المهلهلة إلى الحد الذي يصعب معه ترجمتها — أنها تنتهي عند هذا الموضع، وأن سافو لا بد قد عادت إلى الموضوع الذي بدأت به، قياسًا على ذلك النوع من التكوين الدائري الشائع في أشعار اليونان. مهما يكن من شيء فإن انقطاع الأغنية عند هذا الحد

شيء محزن حقًّا، ولعلها قد انتهتْ كما تنتهي معظم أغانيها البعيدة عن التهويل الدرامي — الذي نجده عند شاعر مثل ألكايوس — بتعبير عن الأمل في أن يُسمع النداء ذات يوم، وبأنه ما من نداءٍ صادق يبقى بغير صدًى. ولعل هذا التعارض بين البداية اليائسة والخاتمة المشرقة ألَّا يخلو من مغزًى؛ فالنفس البشرية التي لا تكف عن البحث لا تستطيع أن تتوقف أو ترضى بالهزيمة والانكسار، بل تصر دائمًا على أن تنشر جناحيها لتواصل طريقها من جديد، قد نتمنى لو عرفنا إلى أين تطير؟ وقد نسأل من أين ستأتي إذن باليقين المرح الذي ستواجه به المعرفة الأليمة بقسوة الطبيعة؟ لم تلجأ الشاعرة إلى الصلاة في معبد إلهتها، أو البكاء عند أقدام عرشها المزدان بالزهور، لم تهرب مغمضة العينين إلى مملكة الأحلام، لم توغل في البُعد بحثًا عن قانون أعلى، لقد بقيتْ مع نفسها أو في نفسها. تذكرتْ وعرفتْ ذلك القانون الأعلى، تلك الحقيقة البهيجة عن حرية القلب البشري، التي لا يستطيع قانون ولا حقيقة طبيعية أن تسلبها إياها.

ولكن هل تستطيع مثل هذه التفسيرات أن تقرب إلينا شيئًا مما يشير إليه الشعر بوسائله الخاصة، بالتلميح الهين، والانتقالات المفاجئة، والقلب والعكس والعَود إلى البدء ... إلخ، بكل هذه الأساليب التي نحس معها بأن هناك شيئًا لم تقله القصيدة — ولا نحب أيضًا أن يقوله لنا أحد! — وبأننا نؤثر أن نُترك معه لنواصل الإحساس به والتفكير فيه؟

هناك صفة أساسية في شعر سافو لا يصح أن نسكت عنها، تلك هي الوعي المشرق المضيء، وليس معنى هذا أنه صفة ملازمة لكل قصائدها، بل معناه أن الوعي يظهر فيها في مواضع متفرقة، على نحو مفاجئ يكشِف كالبرق الخاطف عن كل ما يختبئ في ظلمات نفسها، ويسلط الضوء على أعمق أعماق حياتها، ويهديها إلى الحكمة الواحدة وراء اختلاف الآراء والأهواء في النفوس.

وطبيعي أن حكمة الأمثال الشعبية لا تكفي للتعبير عن مثل هذه الحكمة البسيطة المباشرة، كما أن الصور الشعرية لا تستطيع أن تؤديَها على الوجه الجدير بها؛ فسافو قد خرجتْ من حياتها بكل ما جربتْه فيها من سعادة وما عانتْه من شقاء بما يشبه الحكمة المطلقة. إنها لا تحاول أن تفسر لنا لماذا يحب الناس هذا الشيء وينفرون من ذاك؟ بل تقول مرةً واحدةً: إن أجمل الأشياء بالنسبة إلى كل إنسان هو ما يحبه ويشتهيه. وها هي ذي تقول في إحدى أغانيها:

من الناس من يحبون جيوش الفرسان،
ومنهم من يرى أن جحافل المشاة أو السفن

هي أجمل الأشياء فوق أرضنا السوداء.
(أما أنا) فأجمل الأشياء عندي
هو ما يحبه القلب.

فالشاعرة تَذكُر الفرسان، والمشاة، والسفن على التوالي، كأشياء يرغب فيها الناس على عهدها، ويعلِّقون عليها الآمال في المجد والشهرة بل في الحب أيضًا، ثم تختمها بموضوع رغبتها هي — أناكتوريا. وهذا التقرير التصاعدي الذي ينتهي «بأفعل تفضيل» لا يخلو من اعتزاز بالنفس وتأكيد للاستقلال، فسافو تريد أن تعبر عن قوة مشاعرها، فلا تجد وسيلةً أنسب من مقارنتها بأشياء تستحوذ على مشاعر الناس واهتماماتهم، بل قد يَهَبون لها حياتهم بأكملها: روعة الحياة العسكرية ومخاطرها على البر واليابسة. وقد تكون هذه الطريقة في تقديم القصيدة وختامها قد عُرفتْ في فجر الشعر اليوناني قبل سافو بحيث استطاعتْ هي و«بندار» في أناشيده الأوليمبية أن يستخدماها في صورة ناضجة توحي بتاريخها الطويل. ولكن يبدو كأن سافو قد أخذتْ هذا الشكل القديم وأضافتْ إليه من روحها وشخصيتها ما جعله جديدًا حقًّا، فهي تتعمد الإلحاح على مظاهر القوة والفروسية في افتتاحية القصيدة وفي المقطع قبل الأخير منها لكي تقابل بينها وبين طريقتها كامرأة في الحياة، فهي وإن كانت امرأةً فإنها لا تشعر نحو معاصريها من الرجال بأي شعور بالنقص، بل فإنها تجد في حبها لأناكتوريا من الرضا والسعادة أكثر بكثير مما يجده الرجال في الحياة العسكرية.[1]

[1] هناك أغنية لشاعر إسباني هو جيل بيثنته Gil Vicente (١٥٣٦–١٤٧٠م) يمكن مقارنتها بأغنية سافو. فالشاعر الإسباني يُطري محاسن حبيبته في أبيات ثلاثة رقيقة، ثم يسأل الملاح والجندي والراعي إن كان يمكن أن تقارن سفنهم أو أسلحتهم أو قطعانهم بجمال المحبوبة:

ساحرة هي الفتاة،
ما أجملها، ما أحلاها!
قل لي، أيها الملاح،
يا من تعيش على السفن،
هل السفينة أو الشراع أو النجم
أجمل منها؟
قل لي، أيها الفارس،

لقد وهبتْ نفسها وحياتها لما أحستْ نحوه بالحب. وهي تعرف أن غيرها قد يحب شيئًا آخر ويحلم بآمال أخرى، أما هي فتجد في حبها الكفاية عن كل شيء سواه، فقيمة الحب عندها لا تقل عن أية قيم أخرى يعتز بها المعاصرون لها من الرجال. وانصرافها الإرادي إلى حياتها الخاصة عن الحياة العامة، يؤكد حرصها على استقلال المرأة في هذه الفترة المبكرة من التاريخ. وليس من قبيل المصادفة أن تقارن نفسها بهيلينا التي ضحتْ ببيتها وزوجها في سبيل حبها، وجرَّت الخراب على طروادة في الحرب الطويلة الطاحنة بينها وبين أثينا.

سوقد اعتقد بعض الشارحين فترةً من الزمن أن هذه الأغنية التي تدور حول الحب وحده، وتكشف الكثير عن عواطف سافو وفنها، تعد نوعًا من الاستثناء بين أغانيها. ولكن تردُّد سؤالها عن «الأجمل» والأعظم في الحياة أمر مألوف في شعرها، كما هو مألوف في هذه المرحلة المبكرة من الحياة العقلية اليونانية قبل بداية الفلسفة والعلم. ولم تكن سافو في حاجة إلى أن تشرح ما تريده بقولها في إحدى القطع الجديدة المهلهلة التي اكتشفتْ حديثًا:[٢]

أنا لم أعتب على الجمال أبدًا،
وهل كان عندي أعظم منه؟

فقد كانت معرفتها بأن الحب والجمال هما أعظم شيء في حياتها معرفةً بالقلب والبصيرة، معرفةً واضحةً أو سرًّا مكشوفًا كما يقول «جوته» في تعبيره الجميل المشهور. وإذا كنا نحتاج اليوم إلى الشروح والتفسيرات، ونلجأ مضطرين إلى القياس والاستنتاج، فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى سافو ولا بالنسبة إلى روح عصرها. لقد كانت تستغنى بالقرب

يا من تحمل السلاح،
هل الخيل أو الأسلحة أو الحرب
أجمل منها؟
قل لي، أيها الراعي،
يا من تحرس الأغنام،
هل الأغنام أو المروج أو الجبال
أجمل منها؟

[٢] راجع ماكس تروي، أغاني سافو، من ١٤، ١٥، ميونيخ، ١٩٥٨م.

من الأصل والمنبع عن كل شرح أو تفسير، وكان حبها للخصب والجمال نابعًا من حبها للشمس، ولم يكن في استطاعة الشراح الأقدمين أن يفهموا ذلك، فقد كانت رؤية الشمس مرادفةً عند اليونان للحياة نفسها. ولا بد لنا من أن نفهم حبها للشمس بمعناه الحرفي، أعني بما هو حب للحياة بكل مظاهرها وألوانها وأنغامها، وبكل ما فيها كذلك من ألم وعذاب، ما أكثر ما صادفتهما في حياتها. المهم أنها لم تكن تقصد بحبها للنور والجمال أن تقرر حقيقةً فلسفيةً مطلقةً، بل كانت تعبر عن عاطفة شخصية إلى أبعد الحدود. ولقد كانت حياتها نفسها مصداقًا للحب الخالص لكل الجوانب المشرقة من الوجود الإنساني تحت الشمس.

ولا يدهشنا بعد ذلك أن يتحدث عنها أفلاطون في محاورة فايدروس (٢٣٥ب) فيقول: «سافو الجميلة»، ولا أن يصفها بأنها ربة الجمال العاشرة، فيضيفها إلى ربات الفنون التسع المشهورات، تكريمًا لها وإعجابًا.

تقول سافو في إحدى أغانيها:

ولكنني لست من النوع
الذي يبادل (الناس) غضبًا بغضب،
بل إن قلبي يتحمل في صمت …

ونحن نعرف اليوم أنه كانت لسافو منافِسات عديدات، وأنهن ربما هزأن بها وحقدن عليها، ولكننا نعرف أيضًا أنها لم تكن تقابل الشر بالشر. ونحن لا نستنتج ذلك مما تقوله هي عن نفسها في الأبيات السابقة، بل من المواضع العديدة التي تكشف عن حقيقة العلاقة التي كانت تربط بينها وبين تلميذاتها.

فقد كانت أشعار سافو نابعةً من الحياة الجماعية التي عاشت فيها، مرتبطةً بـ «المعهد» الذي أنشأتْه في بيتها لتربية العذارى على عبادة الجمال وإعدادهن للحياة الزوجية. لم تكن إذن تكتب للأجيال المجهولة التي لم تولد بعد، ولا كانت تكتب لـ «الخلود» كما سيدَّعي بعض الشعراء في الأزمان اللاحقة، فقد كانت أشعارها مرتبطةً بمناسبات محددة، موجهةً إلى أناس محددين، وكانت تعكس مشاعرها نحو رفاقها أو نحو أفراد بعينهم. وإذا أردنا أن نفهمها فلا بد لنا من أن نحاول فهم كل المناسبات التي قيلتْ فيها. ومن حقنا بالطبع أن نعمِّمَ معانيَها أو نجد فيها تعبيرًا عن عواطفنا، ولكن من الواجب أيضًا أن نعرف دائمًا أن سافو كانت تكتب لجمهور معين، وأن هذا الجمهور كان يختلف

عنا كل الاختلاف. ولْنحاول الآن أن نضرب لذلك مثلًا بأُولى قصائدها التي توجهها إلى أفروديت:

أفروديت، أيتها (الإلهة) الخالدة على عرش بهيج الألوان،
أبتهل إليك — أنت يا ابنة زيوس الماكرة —
ألَّا تقهري الفؤاد بالهموم والأحزان ... إلخ.

ومضمون هذه القصيدة يتضح من النظرة الأولى إليها، فسافو تدعو أفروديت أن تُعينها، على نحو ما أعانتها من قبل. ولو أن شاعرةً أخرى كتبتْها لاعتقدنا أنها أرادت أن تتخلص بها من أحزانها الذاتية، ولكننا نعرف أن سافو كانت تكتب أشعارها لتغنيها رفيقاتها وتلميذاتها، أو لتنشدها بنفسها (وليس من قبيل المصادفة أن تعنون طبعات قصائدها بكلمة أغاني «ميلي»). فالقصيدة إذن صلاة حقيقية موجهة إلى إلهة حقيقية تؤمن بها الشاعرة وتحيا لخدمتها، بل تعتقد أنها رأتْها رأي العين، أو قل رأيَ الروح فيما يشبه الرؤى الصوفية.

وهي صادقة صدقًا لا يتطرق إليه الشك، بحيث نستطيع أن نقول إنها مرتبطة بحادث معين في حياة سافو. ومع أن القصيدة باتفاق العلماء كاملة، فإن سافو — على عكس ما نتوقع — لا تذكر اسم الحبيب الذي يسبب لها كل هذا الحزن، بل تترك الموقف محوطًا بالغموض. ولا يبقى أمامنا إلا أن نسأل: في أي مناسبة قيلت هذه القصيدة؟ والجواب عن ذلك يقدمه الباحث الشهير فيلاموفتس[٣] حيث يقول إن سافو قد غنتْها بين فتياتها ولم تذكر اسم محبوبها لأنها لم تكن في حاجة إلى ذكره، إذ إنه كان موجودًا بين رفيقاتها ولا بد من أنه كان معروفًا للجميع. فهي قد وقعتْ من جديد في أسر الحب، والعذارى يستمعن إليها تغني وتستمع إليها الحبيبة معهن، أو قل إنهن جميعًا يعرفنها إن لم تكن حاضرةً معهن.

القصيدة إذن لا تُعد صلاةً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فهي لا تهتم بأية احتفالات أو طقوس مما يقام عادةً للإلهة أفروديت، ومع أنها تختلف عن كل القصائد التي كان الشعراء المتأخرون يوجهونها إلى الآلهة، فهي تحتفظ مع ذلك ببعض الخصائص التي

[٣] في كتابه: «سافو وسيمونيدس»، ص٤٨.

تتصف بها الترانيم الدينية. إن الشاعرة تخاطب أفروديت فتطلق عليها بعض الألقاب التي عُرفتْ بها: فعرشها بهيج الألوان؛ ربما لأنه كان مزدانًا بالذهب ومُطعَّمًا بالعاج، وهي ماكرة أو ناسجة للحيل والفتن، إشارةً إلى سلطانها، وإلى مختلِف ألوان السحر والغواية التي تلقيها في عقول محبيها، كما أن لهجة الابتهال قريبة من لهجة الترانيم الدينية، وهي تتوسل إليها في البيت الأخير أن تأتي إليها فتقف إلى جانبها وتقدم لها العون. ومع هذا كله فإن رؤية سافو للإلهة تتميز ببساطتها ووضوحها وبُعدها عن التأثر والانفعال. إن كل شيء فيها طبيعي وواقعي؛ فبيت زيوس ذهبي وكفى، والطيور التي ترفرف بأجنحتها حول عربة أفروديت مثل كل الطيور، والأرض التي تعبرها أرض سوداء، والإلهة التي كان من الممكن أن تبعث الرهبة في قلب الشاعرة «تبتسم بوجهها الخالد»، بل إنها تحس بما يجيش في صدر سافو وتنطق به بإشارة بسيطة موجزة، حتى إن الشاعرة وهي تتوسل إليها في البيت الأخير أن تحقق لها أمانيها لا تذكر شيئًا عن هذه الأماني؛ لأن الإلهة نفسها تعرف كل شيء.

القصيدة إذن صلاة من نوع خاص، كان المقصود بها أن تنشدها الفتيات اللائي وهبن حياتهن لعبادة الإلهة أفروديت، أو أن تنشدها الشاعرة بنفسها بينهن. وهذا الصدق الذي نحسه فيها والجد الذي يطبِّعها بطابعه يبيِّنان لنا كيف كانت حياة سافو ممتزجةً أشد الامتزاج بحياة فتياتها، وكيف كانت تعبِّر بهواجسها وأفكارها عما يدور في عقولهن وقلوبهن من هواجس وأفكار. إنها لا تَمضي بأحلامها وخواطرها إلى معبد أو مذبح لتقف أمامه صامتةً متأملةً، بل تمضي بها إلى صاحباتها وتلميذاتها لتطلعهن على أسرارها وتحظى بعطفهن ومشاركتهن. وهي لا تخجل من البوح بهذه الأسرار في صراحة؛ لأنها تشعر بأن رغباتها وعواطفها، مهما تكن فاشلةً ومؤلمةً، فهي مقدسة وأمينة وصادقة. ومن الصعب أن نجد قصيدةً أخرى من قصائد الحب المشهورة تدانيها في لغتها الصريحة المباشرة التي لا تحاول أن تخلق من الحب أسطورةً أو سرًّا من الأسرار. فالكلمات توائم الإيقاع الموسيقي مواءمةً طبيعيةً تجعلها أشبه بالكلمات العادية التي يتكلم بها الناس فيما بينهم، بعد أن ارتفعتْ إلى درجة عالية من الرُّوحانية وصدق التعبير، وكأن الكلمات قد جاءتْها عفوًا وبلا عناء لتصنع أغنيةً موزونةً ملحنةً، تعبر عن حب خالص يسمو بصاحبه فوق شهوات الجسد ورغباته إلى التفاني الكامل في المحبوب.

والقصيدة تنقُلنا إلى قلب الحياة التي عاشتْها سافو بين أترابها وتلميذاتها، وتصور لنا طبيعة العلاقة التي كانت تربطهن بعضهن ببعض تحت سلطان الإلهة التي وهبن

أنفسهن لعبادتها وتكريمها. كانت الفتيات يعشن في جماعة واحدة، تحت سقف واحد؛ ولذلك فقد كان حب سافو لهن وحبهن لها ولبعضهن البعض شيئًا طبيعيًّا. وليس هناك دليل على أن هذا الحب كان يُقصد به المتعة الجسدية أو اللذة الحسية، كما أن العقلية اليونانية لم تكن تستنكره أو ترى فيه غضاضةً، ولذلك فلا يجوز لنا أن نحكم عليه بقوانيننا الأخلاقية، أو أن نرى فيه نوعًا من الشذوذ أو الفساد الذي كان غريبًا على ذلك العصر. لقد كان الوضع الاجتماعي آنذاك يقضي بالانفصال بين الجنسين، كما أن الارتباط العاطفي الذي كان يجمع سافو وفتياتها ونحسه من أشعارها يسمح لنا بأن نرى فيه لونًا من الارتباط الروحي الذي تقيده مجموعة من القيم الأخلاقية كما يحكمه ذوق سافو الخلقي نفسه. ولا يصح أن نستنتج من تعلقها بفتياتها وحدبها عليهن وألمها لفراقهن أنها كانت ذات علاقة شاذة معهن؛ فمثل هذا الاستنتاج الرخيص لا يؤيده سند من حياة سافو ولا شعرها، بل قد يكون عقبةً تحول بيننا وبين تذوقه التذوق الصحيح. ويكفي أن نعيد قراءة هذه القصيدة المؤثرة التي تصف فيها موقف الوداع لإحدى الفتيات قبل رحيلها إلى بيت الزوجية. فالفتاة تصرخ قائلة: حقًّا، وددتُ لو ذقت الموت! وتنشج باكيةً على صدرها وهي تودعها، ولا شك في أن سافو نفسها حزينة، بل لا نخطئ إذا قلنا إنها هي نفسها تود لو ذاقت الموت، وإن قالت ذلك على لسان تلميذتها وصديقتها الراحلة، على أننا لن نسمع بعد ذلك شيئًا عن حزنها هي، إذ ستحل محله شكوى الفتاة من حظها البائس:

آه ما أبشع حظنا!
سافو، أنني أفارقك بالرغم مني!

ونعرف مما تقوله الأغنية أن الفتاة كانت دائمة الشكوى من قدرها، وأن سافو كانت دائمًا ما تعزيها وتحمل عنها همومها. وها هي ذي الآن تذكر الفتاة الباكية بكل ما بذلتْه نحوها من حب ورعاية، وبكل ما جرباه معًا من سعادة وجمال، ولكنها لا تقول ناصحةً أو لائمةً: «ليس من حقك أن تشكي من قدرنا القاسي، فأنتِ تعلمين بنفسك أنه لم يكن كذلك»، بل تكتفي بأن تقول: «أنتِ نفسك تعرفين.» وهي عبارة تتردد كثيرًا في أغانيها الموجهة إلى تلميذاتها. ثم تستطرد سافو وكأنها تهمس لها: أما إن كنتِ لا تعلمين ما عشناه معًا من سعادة وجمال ... فها أنا ذا أصفه لك، صورةً صورةً، وأحصيه لك ذكرى بعد ذكرى، وأعيد إلى خيالكِ كل المباهج التي نعمنا بها في الأعياد والاحتفالات، وفي الأماكن المقدسة

وعند الجداول والأنهار ... وتصعد الشاعرة مع ذكرياتها التي جربتْها مع محبوبتها درجةً درجةً، وتزدحم صور الماضي بكل ما ذاقته من ساعات هنية، في حين تتوارى الشاعرة نفسها خلف هذه الصور، وكأن لا مكان هنا إلا للآخر وما يعانيه من ألم أو يلاقيه من هناء، وكأن لا وجود إلا للماضي بكل ذكرياته وأفراحه، فهو وحده الذي يجلب العزاء عن هذا الفراق.

وتمضي سافو فتسرد للراحلة في بساطة وصدق كل ما «عشناه من سعادة وجمال»، ناسيةً نفسها، ناسيةً حاضرها، إلى أن ينقطع النص الذي لدينا من الأغنية فجأةً، دون أن نعرف كيف انتهى بها الحديث، ومع ذلك فقد لا نبعد كثيرًا عن روح هذه القصيدة إذا قلنا إن الشاعرة قد عادتْ بعد رحلتها في الماضي إلى لحظة الوداع، إلى الحاضر الذي كان يحيط بها في تلك اللحظة، والحاضر الذي كانت تعيش فيه وهي تكتب الأغنية.

لم تقصد سافو وهي تسرد ذكرياتها الماضية أن تجمِّل لحظتها الحاضرة، وإلا كانت كمن يحاول أن يخلق لنفسه عالمًا من الوهم المسحور ليعيش فيه. لقد جفتْ دموع الفتاة، ورحلتْ في هدوء، و«الآلهة تثيب من كان بلا دموع». أما حزن سافو فلم ينطفئ، بل سكن وهدأ، واستطاع القلب أن يجد إلى جانب الألم مكانًا للأمل. لقد عادت للماضي ولذكرياته وظيفتهما الإيجابية الحقة فهما يهدئان ويعينان. ليس وهمًا ما كان؛ فالجانب المضيء منه يعود، أما الجانب المظلم فهو وحده الذي يمضي بلا عودة. وكل إنسان يستطيع أن يوقظ الجمال الراقد في نفسه بالسؤال البسيط: أما زلت تذكر؟ وعندها يعود كما كان في قوته، وكماله، وبهجته، لا بل نخطئ إن قلنا إنه يعود؛ لأنه موجود على الدوام، الأمس واليوم وغدًا.

ربما يرجع السر في بقاء شعر سافو إلى فطرتها الفنية كما يرجع إلى أسلوبها، فهي تجمع الحساسية المرهفة مع البساطة والصدق وقوة العاطفة. ولقد ورثت الكثير عن الأغنية الشعبية كما تقدم، فأخذت منها الأسلوب المباشر في الكلام الذي يختلف عن الأسلوب البطولي المبالغ فيه في الملحمة. ولم تنحدر هذه البساطة عندها إلى الإسفاف، فقد أنقذها من ذلك قوة مشاعرها ومقدرتها على الرؤية الواضحة، فأغانيها إذن تنتمي إلى التراث الشعبي بما تميزتْ به من اقتصاد في معجمها اللُّغوي، وشغف بالإعادة وتكرار الافتتاحية في خاتمة القصيد. وإذا كان سحر الأغنية الشعبية يكمن في قدرتها على التعبير عن أعظم الحقائق في أبسط الكلمات والمشاعر، فقد أخذتْ سافو ذلك عنها فيما أخذتْه، فلم تلجأ حتى

في أعنف المواقف العاطفية إلى المبالغة، ولم تحتَج إلى تزيينها بالصور الجميلة. لقد عرفتْ دائمًا كيف تعبر عما تحس به، فلا تزيد ولا تنقص. فالخطابية غريبة عليها، والزُّخرُف اللفظي شيء لا تحس بضرورته. لقد كانت تعبر بأغانيها عما تشاهده بعينيها وتحسه بوجدانها، وكان الإحساس الصادق عندها هو الحَكَم والمقياس، فهو أسمى لديها من كل القيم والقوانين والتقاليد. لقد أرادتْ أن تسمع أولئك الذين أحبتْهم وأحبوها، وفهمتْهم وفهموها، وكانوا في أغلب الأحيان مصدر إلهامها. ويندر أن نجد شاعرًا يقول كل هذه المعاني في هذا العدد الضئيل من الكلمات، فالبساطة لا يمكن أن تذهب إلى أبعد مما تذهب إليه في مثل هذا البيت:

أحببتك يا أثيس كثيرًا من قديم الزمان.

أو حين تخاطب إحدى فتياتها فتقول:

أنت يا أجمل من كل النجوم!

والاستعارة والتشبيه ما كان في استطاعتهما أن ينقُلا إلينا كل ما عبَّرا عنه بغير استعارة ولا تشبيه. إن الأسلوب والطبيعة أو الشكل والمضمون، كما نردد كثيرًا في هذه الأيام، يندمجان إلى الحد الذي يستحيل علينا معه أن نعرف أيُّهما أعظم: الفن أم الإلهام؟ إن عذوبة الصوت تجتمع مع وضوح الرؤية، وصدق الفكرة مع دقة الشكل، وجمال اللفظ والإيقاع مع جمال الموضوع المعبر عنه لتخلق جميعًا وحدة الانطباع الجمالي التي هي سر كل فن عظيم.

عرفتْ سافو أن من المستحيل أن تصبح السعادة الكاملة من نصيب الإنسان، كما عرفتْ أنه ما من طريق يوصلنا نحن البشر إلى «الأوليمب العالي»، ولكنها استطاعتْ بالمشاركة في أحزان الغير وهمومه، بل في تحمل هذه الهموم عنه إلى الحد الذي تنسى معه همومها هي، أن تخفف من وقع هذه الحقيقة الصادقة الأليمة التي تعبر عنها بقولها:

ليس ممكنًا أن تصير السعادة الكاملة ...
(من نصيب الإنسان)
ولكن المشاركة ...

ولعلها، إن صحت نسبة هذه الشذْرة التي يرويها أرسطو في كتاب الخطابة عنها (ب٢٢، ١٣٩٨ ب٢٧)، قد عبرتْ عما نسميه اليوم بالقلق الوجودي حين قالت إنه ليس هناك ما هو أسوأ من الموت، وإن الآلهة هم الذين شاءوا ذلك، وأنهم ربما كانوا اختاروا الموت لأنفسهم لو أن الموت كان شيئًا جميلًا. لقد أحستْ فيما يبدو بما نحسه اليوم من تناهي الحياة وزوالها، ولكنها تعلمتْ سر القلب البشري وعلمتْه لتلميذاتها وصاحباتها حين علمتْهن أن يتمتعن باللحظة الفانية، وأن يستنفدن ما فيها من بهجة وجمال، قبل أن تسقط في خضم الماضي، وتصبح جزءًا مما نسميه بالتاريخ. ولعلها قد علمتهن أيضًا كيف يعبر الإنسان عن اعترافه بالجميل للمحبوب وعن شكره له على اللحظة السعيدة التي قدر له أن يقضيَها معه، إن كانت قد قُدرت له على الإطلاق.

واليوم، ماذا بقي لنا من شعر سافو؟

لم تتصور سافو — على الرغم من كل ما في الشعراء من كبرياء حزينة أو من حزن متكبر! — أن مجدها يمكن أن يصل يومًا إلى السماء:

لست أحسب أنني سألمس السماء «بيديَّ».

بل كان أقصى طموحها أن يذكرها الناس ذات يوم، في زمن من الأزمان المقبلة:

سوف يذكرنا بعض الناس،
كما يبدو لي، في زمن متأخر.

ولم يخيِّب الزمن هذا الأمل الطيب المتواضع — على الرغم من ضياع الجانب الأكبر من أشعارها — فلم يزل لأغانيها ألوف الأصدقاء والمحبين، لا من بين العلماء والباحثين وحدهم، بل كذلك من بسطاء الناس الذين يعرفون دائمًا — لحسن الحظ — قيمة الكلمة الشاعرة البسيطة.

ومع أن الشعر مرتبط باللفظ ارتباط الروح بالجسد، ومع أننا لن نستطيع أن نتذوق شعر سافو تذوقًا كاملًا حتى نقرأه في لفظه ووزنه ونغمه الأصلي، فإن الترجمات — على الرغم من عجزها الضروري — لن تحرمنا حلاوة أغانيها.

فلم يزل وهج أحاسيسها حيًّا يلذع كل من لديه إحساس، ولم يزل سحر أغانيها (أو «الخاريس» كما كانت تسميه) يأسر القلوب، ويرسل عليها من هذا الزمن البعيد أنفاسه الدافئة الندية.

إن ضجيج العصر الحديث لم يستطع أن يخمد الشوق الخالد الذي نرعاه في نفوسنا نحو السكينة والبهجة والجمال. وما من شاعر من شعراء اليونان الأقدمين يُشبع فينا هذا الشوق كما تفعل سافو. والحكاية التي تُروى عن المشرع اليوناني العظيم صولون لا تزال تحتفظ بدلالتها؛ فقد روي عنه أنه كان يتمنى في شيخوخته أن يتعلم أغنيةً من أغاني سافو لكي يموت بعدها مرتاح البال. ولعل هذه الأمنية أن تكون شبيهةً بتلك الأمنية التي جاشتْ في نفس أوديسيوس حين كان يطوف في أسفاره البعيدة بالبلاد والبحار، ويعذبه الشوق إلى وطنه إيثاكا، وأن تكون شبيهةً بذلك الشوق الخالد الذي عرفتْه البشرية منذ أقدم العصور، ولا يزال يحركها إلى وطن يرفرف عليه الحب والعدل والسلام. ومع أن الحكاية التي تُروى عن صولون بالغة الدلالة على شعر سافو، فإن الوقوف عندها وحدها قد يكون عاملًا على إساءة فهمها، والاكتفاء بالمتعة الجمالية التي تتيحها لنا أغانيها عن إدراك العظمة الإنسانية التي تكمن وراءها. حقًّا إن مواقف الفراق بين الأحباب كانت دائمًا هي الأوتار التي تعزف عليها الأغنية الشعبية بكل ما فيها من حلاوة ورقة وحزن وهدوء، كما كانت الحقل الخصب الذي تتفتح فيه أجمل زهرات الشعر الغنائي. وسافو من أكثر الشاعرات اللائي عرفهن الأدب العالمي هدوءًا وسكينةً، وهي لذلك أيضًا من أشدهن عمقًا. إننا نسمع قلبها يتحدث إلينا دائمًا، وهو حديث هادئ استطاعتْ صاحبته بعد كفاح طويل أن تنتصر فيه على عذابها الشخصي، وهو لذلك أيضًا حديث ذاتي إلى أبعد حدود الذاتية، ومن ثم كان شعرها هو أغنيةَ حياتها الشخصية قبل أن يكون أغنية العصر الذي عاشتْ فيه. وقد لا نخطئ إذا قلنا اليوم إنها أحستْ كما لم يحس غيرها بتلك الضرورة القاسية الجميلة التي تدفع أصحاب الفن إلى أن يصنعوا الفن. ومهما تختلف الآراء حول طبيعة العلاقة التي تربط بين الفن والحياة، فقد كانت سافو مثالًا نادرًا على الشاعر الذي يستمد من الشعر عونًا على الحياة، أو الذي يحس أنه لا بد له من أن يغنيَ لكي يستطيع أن يتنفس. ونعود فنسأل أنفسنا أو نردد سؤالًا ربما دار في خَلَد القارئ: لمَ سافو؟ هل نحس بالحاجة إلى شعرها؟ بل هل نحس اليوم بالحاجة إلى الشعر على وجه الإطلاق؟ هل بقي بيننا مَن يشعر بضرورته أو يحاول أن يستمد العون منه؟

وإذا كنا نجد في العبارة السابقة «لا بد أن نغنيَ لكي نستطيع أن نتنفس» شيئًا من المبالغة، فهل لا يزال في مقدورنا مع ذلك أن نفسح للشعر مكانًا في حياتنا اليومية؟ أبقيَ في قلوبنا مكان لـ «حكمة القلب» أو للشوق البشري الخالد نحو الحب والسكينة والفرح والجمال؟ أم أصبحنا اليوم نسخر أو نرثي لمن يردد هذه الكلمات على لسانه، أو نسارع

فنتهمه بالأحلام والرومانتيكية، إن لم نسارع فنتهمه بالجنون؟! هل تحقق حلم أفلاطون القديم في جمهوريته؛ فنفينا الشعراء من حياتنا نفيًا حقيقيًّا، لم يمنع بالطبع من الصبر عليهم بين حين وحين، بأن نفرد لهم حيزًا ضئيلًا في جريدة أو مجلة، أو دقائق قليلة في حفل أو مناسبة، كنوع من الشفقة أو إرضاء الغرور أو الترويح عن النفس أو التحلية بعد أكلة دسمة؟ لقد وُجد دائمًا من يهزأ بالشعر والشعراء، كما وُجد من يتسلى بقراءتهم أو التعمق في دراستهم. وأمثال شيشرون (الذي يَروي عنه الفيلسوف الرواقي سينيكا قوله إنه لو قُدِّر له أن يعيش حياته مرةً أخرى لما أضاع منها شيئًا في قراءة الشعر!) ممن نسميهم عادةً بـ«العمليين» قد وُجدوا أيضًا على مر العصور. وطبيعي أن يسأل قارئُ اليوم — وهذا حقه المشروع — إن كان قد بقي للشعر كلمة يقولها الآن، أو إن كان قد بقي هناك من يستطيع أن يسمع صوته وسَط ضجيج العصر؟ هل هناك فائدة من الشعر في زمن يصارع فيه الناس في سبيل خبزهم اليومي؟ هل هناك من يملك القدرة على الغناء في الوقت الذي يجوع فيه ملايين الأطفال، وتشن فيه الغارات على القرى الآمنة في فيتنام، وتصارع الشعوب للحصول على الخبز والحرية من يد المستغلين والمستعمرين، ويكافح ألوف الثوار في الكهوف والغابات، ويتعذب ألوف الأحرار في السجون والمعتقلات، ويَعرق الفلاح والعامل والتاجر والموظف الصغير؟ أسئلة كثيرة، يلخصها سؤال الشاعر هولدرلين في لحظة من لحظات يأسه: «لمَ الشعراء في الزمن التعيس؟»[٤] ولا أحب أن أقول مع هولدرلين إن هذا الزمن ضنين أو تعيس؛ فما أكثر ما نعى الشعراء على كل زمن تعاسته! ولكنني أحب أن أقول إن هذا الزمن أحوج إلى الشعر من أي زمن آخر، وإن هذا الجيل ربما كان أجدر بالشعراء من أي جيل سواه؛ فعندما تأخذ حكمة القلب الخالدة وقيم الحب والسلام والجمال مكانها الإيجابي من حياتنا الفاعلة، ويوم يصبح الشعر ضروريًّا ضرورة الخبز اليومي، وتصبح المحبة والخير والصفاء أهدافًا لا تقل في أهميتها عن أهداف التخطيط والتصنيع والرخاء، فلن يكون هناك محل للسؤال اليائس الحزين: «لِمَ الشعراء في الزمن التعيس؟» بل سيتسع الزمن كما ستتسع القلوب لشعراء مثل سافو تغنَّوا وما زالوا يتغنَّون بالشوق الإنساني الخالد نحو الحب والعدل والسعادة والجمال، وكان طريق الغناء عندهم هو الطريق إلى الحياة والخلود.

[٤] من قصيدته المشهورة: «خبز ونبيذ».

تمثال لامرأة من عصر سافو أو ما حوله. (متحف الأكروبوليس، أثينا.)

تمثال من البرونز لامرأة ترتدي رداءً من عهد سافو. (المتحف البريطاني.)

لوح يُظن أنه يمثل سافو وأمامها الشاعر المعاصر لها ألكايوس.

تمثال بدون رأس لأياكيس بن بريزون، ويحتمل أن يكون والد الطاغية بوليكراتيس حوالي عام ٥٧٠ق.م. وقد عثر عليه في ساموس.

مجموعة من النساء يمثلن الرداء السائد في عصر سافو، واللوحة مستمدة من رسوم قديمة على الأواني.

أغاني سافو

الكتاب الأول

أخِيل

الأرض السوداء تلقتْه،
والآلام الكثيرة
التي احتملها أمير الأتريديين[1]
(المعين في الحرب)
وجدت نهايتها.

* * *

أفروديت، أيتها (الإلهة) الخالدة على عرش بهيج الألوان،
أبتهل إليك، أنت، يا ابنة زيوس الماكرة،
ألَّا تقهري الفؤاد بالغم والأحزان،
يا سيدتي،
بل تعالَي إلى هنا،
إن كنتِ من قبل قد سمعتِ على البُعد صوتي يناديك،
وهبطتِ إليَّ، تاركةً بيت أبيك الذهبي،
ممتطيةً العربة التي تشدُّها الطيور الخفيفة
فوق الأرض السوداء،
مرفرفةً بأجنحتها الرشيقة

[1] نسبة إلى أتريوس، وهو والد أجاممنون ومينيلاوس قائدي الحملة المشهورة على طروادة.

من أعالي السماء عبر الهواء؛
فبلغتْ سريعةً إلى هدف رحلتها.
وسألتِني أنت، يا أيتها المباركة،
والابتسامة على وجهك الخالد،
عما جرى لي من جديد.
ولماذا أعود فأناديك؟
وما الذي أرجوه، أنا المخبولة القلب،
أن يتحقق؟
«من هو إذن،
الذي سيُهديه «بايثو» حبك؟
من الذي يؤلمك يا سافو؟
إن كانت تهرب الآن،
فعما قريب سوف تتبعك،
إن كانت لا تقبل هدية
فسوف تُهدِي،
إن كانت الآن لا تحب
فسوف تحب عما قريب،
حتى ولو لم تكن تريد!»
تعالَي الآن إليَّ
وخلصيني من همٍّ ثقيل.
وكل ما يشتاق القلب إليه ويرجوه
حققيه أنتِ،
وكوني أنتِ حليفتي!

* * *

يبدو لي، أنه شبيه بالآلهة،
ذلك الرجل، الذي يجلس إلى جانبك،
ويُصغي وهو قريب منكِ،

إلى نغم صوتك الحلو،
وأنت تردين عليه ضاحكةً
مفعمةً بسحر الحب،
ومع ذلك،
فهذا ما سلب القلبَ في الصدر راحته.[٢]
حين أنظر إليكِ، يحتبس صوتي
مرةً واحدةً؛
ذلك أن اللسان ينعقد،
والجلد تسري فيه نار رقيقة
في لحظة واحدة.
بعينيَّ لا أرى شيئًا،
ورعد يُدوِّي في أذني،
العرق يتصبب عليَّ،
والرعشة تملك كل أعضائي،
وأُصبح أشد شحوبًا من الأعشاب الجافة،
وسُرعان ما أبدو أشبه بالميت.
لكن على الإنسان أن يحتمل كل شيء
لأن ...
...

* * *

كل النجوم حول القمر الجميل
تخفي وجهها المضيء،
حين يلقي البدر نوره الفضي
فوق أرضنا السوداء
... (القمر) الفضي ...

[٢] عند بورا: وأنتِ تردين عليه بضحكتك الساحرة التي جعلت القلب يرفرف في الصدر.

... اهبطي من السماء،
تعالَي إلى هنا، إلى معبد كريتاس (؟) المقدس،
الذي يمتد حوله بستان جميل من أشجار التفاح،
تنهض فيه المذابح، معبأةً بالبخور،
ماء بارد يترقرق في فروع التفاح
المنحدر تظلله غصون الورد،
ومن الأوراق المترنحة يهبط النعاس.
المرج هناك، مرعًى للخيول،
مزدهر بورود الربيع،
العطر الحلو تتنفسه أعشاب الينسون.
تعالَي إذن، يا كيبريس، زيِّني رأسك بالباقات،
وامزجي في الجِرار الذهبية، عطيةً غاليةً،
طعام الآلهة (النكتار) المُعد للعيد البهيج،
وأعطنا نشرب!

إلى أفروديت

(ليجعلك) كيبروس، وبافوس أوبانورموس[٣]
(تسكنين هناك) ...
أريد أن (أضحيَ) لك (بلحم) عنزة بيضاء
على المذبح ...
وأريد أن أقدم لك قربانًا ...

* * *

لو أنني، أيتها الإلهة ذات الإكليل الذهبي،
يا أفروديت، تلقيت هذا من نصيبي!

[٣] أوصاف لأفروديت التي كانت تلقب بـ «القبرصية» أو «البافية» نسبة إلى الشاطئ الذي نزلتْ إليه عندما خرجتْ من البحر.

ربات الحب والجمال[٤]

اللاتي علَّمنني صناعتهن،
الشرف كله أدين به لهن ...
أريد أن أُبهج فتياتي
بهذه الأغنية الجميلة
التي أشدو بها.

* * *

أنتن يا جميلات،
لن يتنكَّر لكُنَّ حسِّي ولا شعوري.

* * *

و(الحمامات) تجمَّد قلبهن بردًا
(و) تركن أجنحتهن تسقط ...

* * *

من كانت هذه إهانته (؟)، فلْتدفعه الرياح،
ولْتدفعه همومه!

* * *

عند البكور (أيقظتْني) أيوس ذات الحذاء الذهبيِّ ...

* * *

... أو ... هل هناك إنسان آخر
أحب إليك مني؟
الشوق والرغبة يملكانني.

* * *

آه يا أدونيس!

---

[٤] أود كذلك أن أقول إنني سمعت عن سافو أنها كانت ترفع قدر نفسها على بعض أولئك النسوة اللاتي كن يعتقدن أنهن من الأثرياء، وأنها كانت تقول: إن ربات الجمال (الموزاي) قد أغنينها حقًّا وجعلنها جديرةً بالحسد، وحتى لو ماتت فلن ينساها الناس Ael. Aristid or: 28:5i: إليوس أرستيديس (مات في سنة ١٨٩ب.م.) كان أحد الخطباء والسفسطائيين المحدثين، وقد وردت العبارة في إحدى خطبه.

إلى أخيها

(أنت تُغضب) كل أصدقائك،
تجلب النكد لي، تجلب (العار عليَّ).
لا تثر غضبًا (على أختك)،
(لا) تدع قلبك يضلُّ، واعلم أن وجداني
ليس على استعداد لأن يستسلم للغضب.
لا تشك ... أنا أفهم ... التعاسة.

* * *

كيبريس، وأنتن يا بنات نيرويس
أعدن إليَّ أخي معافًى!
كل ما يتوق إليه قلبه
حققنه له!
ليكن له كل ما افتقده ذات يوم،
لتعد البهجة للأحباب الخلصاء،
ولتكن النقمة على أعدائه،
(ولا يكن أحد عدوًّا لنا أبدًا!)
ليكن قصده أن يعود
فيرى أخته مكرَّمةً
بريئةً من الهموم الثقال
التي سببها لها عذابه ...
لو أنه سمع كل شيء، لاحمر خجلًا
مما يقوله هنا مواطنوه،
ولأوقعه من جديد
في (كمد) شديد ...
رافقيه أنت يا كيبريس إلى الوطن،
أبعدي عنه (العواصف) الشريرة،
احميه على طريق العودة!

* * *

كيبريس، إليك أصلي أيتها الإلهة المباركة.
رحلة طيبة في البحر (امنحي أخي البعيد)
بغير أن ...
ما اقترفه ذات يوم، قد كفَّر عنه.
لتحمله الريح وأمواج البحر
كما لو كانت سفينةً سعيدةً
إلى ميناء الوطن.
كيبريس، أنتِ أيتها الإلهة المنتقمة،
تتبعي آثار دوريخا! لا تجعليها تتباهى
بأنه وقع مرةً ثانيةً في غرامها الملتهب.

* * *

من الناس من يحبون جيوش الفرسان،
ومنهم من يرى أن جحافل المشاة أو السفن
هي أجمل شيء على الأرض،
أما أنا (فأجمل شيء) عندي هو ما يحبه القلب.
ذلك سهل التصور على كل إنسان،
فهيلينا، التي فاقت الكل في جمالها،
هجرتْ زوجها، أفضل الرجال،
ذهبتْ وأبحرتْ إلى طروادة[٥]
لا في ابنها فكرتْ، ولا عادت
بها الذاكرة إلى أبويها الحبيبين،
لأن كيبريس أغرتْ قلبها بالحب.
طرية ...
وخفيفة هي الحواس (؟)،
تدعني أتذكر أناكتوريا البعيدة،
خطوتها الخفيفة،

[٥] هكذا في طبعة تروي، أما بورا فيقرأ البيت هكذا: وخربتْ شرف طروادة بأجمعها.

والنور الساطع من وجهها،
(فهُما) أحب إليَّ من جيش الليديين الجرَّار
ومحاربيهم المدججين بالسلاح.
ليس ممكنًا أن (تكون السعادة الكاملة)
من نصيب الإنسان،
ولكن المشاركة،
هذه الصلاة ...
قريب مني، وأنا أبتهل الآن إليك
وجهك ونعمتك، يا سيدتي هيرا،[٦]
يا من أسَّس عبادتك في قديم الزمان
قُواد الجيش الأتريديون.
لما تمَّت مهمة الحرب الهائلة
(ووصلوا) إلى ...
فكوا مراسيهم هنا،
غير أنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا الوطن
قبل أن ينادوك أنت وزيوس، الذي يرسل ريح السفر.
(الأغاني) المقدسة ما زالت (تتردد) اليوم
كما كانت تفعل من أزمان بعيدة
تكريمًا لكما، (وترقص) جَوقة الفتيات في العيد السنوي
هنا في المرعى حول ...
أنعمي عليَّ يا هيرا ... دعيني أعود إلى وطني.

* * *

... أعطينا، يا أيتها الإلهة المباركة،
... والمجد و...
(أعطينا يا كيبريس)!

[٦] هي ابنة خرونوس وريا، وشقيقة زيوس كبير الآلهة وشريكة حياته، وقد عُرفتْ بأنها إلهة السماء التي تمثل الزوجات وتحمي الزواج، كما اشتهرتْ بشدة غَيرتها على زوجها الذي لم تقف نزواته عند حد.

اجعلي سفينتنا ترسو آمنةً على الشاطئ،
اجعلينا ... نطأ الأرض السوداء من جديد ...
العاصفة تدوِّي؛ الملاحون لا يريدون أن يبحروا؛
لأنهم يخافون العواصف الشديدة،
يتمنون أن تنتهي الرحلة ويرسوا على البر،
وفي أي اتجاه أرادوا أن يسيروا،
فحمولتنا على ظهر السفينة،
... ستمتهن، لأن أولئك ...
يتدفقون جماعات ... لكي يستولوا ...

* * *

...
توقظ فيَّ الشيخوخة الأحزان ...
ترتعش الأقدام، ورُكبي يصيبها العجز.
والشيخوخة تحفر آثار الزمن على الجلد
في كل مكان،
بينا (وإيروس) يجري خلف الفتيات وخلف الشبان.

* * *

... خذي القيثارة إذن
وغننا عنها، عن تلك التي تحمل أزهار البنفسج المعطرة في صدرها.

* * *

... ولكن عليكن أن تتذكرن
كل ما أتيناه في زمن الشباب من أعمال جميلة.
كم من أشياء سعيدة وجميلة تمتعنا بها،
(وكم) كانت المدينة مزدحمةً بالرقصات ...

* * *

مثلما أراكِ الآن جالسةً أمامي،
لا تبدين شبيهةً بهرميونه،
لكن تشبيهك بهيلينا الشقراء
شيء يليق بك،

بقدر ما يسمح بذلك للفانين.
لكن ينبغي أن يعرف قلبك دائمًا ...
...

* * *

... أناديك، فتعالَي إذن يا جونجيلا،
أنت يا أبانثيس ومعك القيثارة،
بينما تجلِّلك روعة الشباب وسحره.

* * *

أنتِ يا جميلة، معطفك يسلب العقل مِن كل مَن يراه،
السعادة تغمرني، حتى أفروديت
لن تجد (فيه) شيئًا تأخذه عليك.
ولهذا أصلي ...
...

* * *

مرات عديدة ...
... لأن الذين أحسنتُ إليهم
تعودوا في معظم الأحوال أن يسيئوا إليَّ
... أنت؛ أريد أن أحتمل هذا ...
وأنا نفسي أعرف هذا ...

* * *

أنتِ نفسك كنت فتاةً صغيرةً من قبل،
وفي الجَوقة كان صوتك يرن في وضوح.
كل هذا تفكَّري فيه،
ومن مثل هذا القلب
أفيضي علينا نعمة السرور،
لأننا نسير الآن في الطريق إلى العرس،
أنتِ نفسك تعرفين ذلك تمامًا،
دعي الفتيات يسرن بأسرع ما يمكن،

وَلْتكافئك الآلهة أبدًا!
انظري، ما من طريق
يوصلنا نحن البشر
إلى الأوليمب العالي ...

* * *

... في (ظلام) الليل
والبنات أمام بات مخدعكما
يغنين بالليل، حتى الغسق،
أناشيدهن الحلوة
في حبك أنت والعروس العذراء.
ثم يوقظك الصباح، يا أيها العريس الشاب،
اذهب إلى أصحابك (حتى تستطيع)
أن ترى النعاس،
كما تفعل (البلابل) الشجية ...

الكتاب الثاني

أحببتك كثيرًا يا أثيس، منذ زمن طويل.

(ربما كانت مطلع أغنية)

كمثل فتاة صغيرة خالية من الحسن
تبدين لي.

(ربما كانت من الأغنية السابقة نفسها أو من أغنية
مفقودة توبخ فيها دوريخا عشيقة أخيها)

أما أنا فأرخي الأعضاء على الفراش الليِّن ...

* * *

لست أزعم أنني ألمس السماء (بيديَّ).

* * *

أجئت أخيرًا؟ الشكر لك! فقد طالما انتظرتك في شوق،
الآن يشعشع قلبي الذي أحرقه الحب،
لك التحية مرةً ومرةً،
بقدر ما الزمن ...

* * *

حقًّا إن الجميل يكون جميلًا،
بقدر ما يدلُّ عليه منظره،
أما الفاضل فسُرعان ما يصبح كذلك جميلًا.

* * *

إروس هز وجداني
كما تسقط عاصفة على أشجار السِّنديان
في غابة على الجبل.

* * *

أتشتهي العذرية نفسي الآن؟

* * *

كما يطير الطفل إلى أمه
كذلك طرت.

* * *

لا العسل ولا النحل تشتهيه نفسي.

* * *

...

(إن سفنًا تقترب من طروادة) قادمة من كيبروس.
أقبل البشير إدايوس مسرعًا وأعلن
الخبر (في القاعة)، كما يفعل الرسول المتعجِّل:
«المجد الخالد يقبل على (مدينتنا المقدسة) إليون[1]
وعلى بلاد آسيا الأخرى.»
هكتور يصطحب الآن فتاةً ذات عيون سوداء،
من طيبة المقدسة ومن أراضي بلاكياس الخصبة
يحضر أندروماخه الرقيقة معه على متن البحر المالح.
سلاسل عديدة من ذهب وملابس أرجوانية
معطرة النسيج، للزينة بهيجة الألوان،
«ومن الفضة كئوسًا لا حصر لها، ومن العاج!»
كان هذا ما قاله، ونهض الأب المهموم واقفًا.
وانتشر الخبر في المدينة الواسعة من صديق إلى صديق
وعلى الفور شدَّ أبناء إليون الحمير

[1] اسم آخر لمدينة طروادة، نسبة إلى مؤسسها إلوس.

أمام العربات ذات العجلات الكبيرة،
ركبت النساء ومعهن البنات ذوات الأقدام الرقيقة في أحذية ناصعة،
مميَّزات عن بنات برياموس[٢] أجمعين.
والخيول شدَّها الرجال في العربات
ومن الشبان أيضًا ...
وبعدها ... على مقاعد العربات جلس السائقون ...
...
...
(كلاهما) شبيه بالآلهة.
كلهم أنشدوا الأغنية المقدسة في الثناء عليها،
هكذا ساروا من الشاطئ صوب إليون المقدسة.
النغم العذب من (آلات) الناي الكثيرة ولحن القيثار
امتزجا بصلصلة الأجراس،
البنات أنشدن أغنيتهن بأصوات رنانة،
إلى السماء ارتفع صدًى هائل
وترددتْ أصوات الضحك (والدعاية).
وفي كل مكان في الشوارع ...
جرار، وكئوس، و...
وروائح المرِّ والقرفة والبخور امتزجت ببعضها.
كل النساء، العجائز، هتفن: «اليلوى!»
كل الرجال هللوا وهتفوا هتافات الزفاف،
نادوا بايون، الصياد الماهر، إله الغناء،
أثنوا على هكتور،[٣] وأندروماخه، وكلاهما شبه بالآلهة.

---

[٢] ملك طروادة على عهد الحرب المشهورة بينها وبين الإغريق.

[٣] ابن بريام ملك طروادة وزوج أندروماخه الوفية وقائد قوات طروادة في أثناء الحصار الذي ضربه حولها اليونان.

الكتاب الثالث

عن إيروس

حينما هبط من السماء،
بالمعطف الأرجوانيِّ
الذي تدثر به.

(تقال عن إله العشق إيروس)

يا ربات السر، يا ذوات الأصابع الوردية
يا بنات زيوس، يا مقدسات، تعالين!

(بداية أغنية)

عندما تموت
ينتهي كل شيء:
ما من ذكرى
ولا من شوق
سيسأل عنك،
ذلك لأنك
لم تشارك أبدًا
في أزهار بيريا.
تذهب غير مرئيٍّ

إلى بيت هاديس
تنزل إلى الظلال
تتلاشى مثلها في عجز
تصبح عدمًا.

* * *

سوف يتذكرنا، فيما أرى،
بعض الناس في زمن مقبل.

* * *

ما من واحدة
يقدر لها أن ترى نور الشمس الساطع،
ستدانيها في الحكمة ثراءً.
ما من صبيَّة واحدة.
لن يكون هذا أبدًا.
...

* * *

أية فتاة ريفية هذه التي تأسر القلب؟
من هي إذن، تلك التي ترتدي هذا الرداء الفلاحي؟
إنها لا تفهم كيف ترفع طرفه حتى عظام القدم.

* * *

هيرو أحسن تعليمها ...
من جيارا هي
ورشيقة خطاها.

الكتاب الرابع

طفلة شريرة أنت،
ما رأيت مثلك أبدًا
يا إيرانًّا!

* * *

تناولي إذن، يا حبيبة، القيثارة للغناء!
ها هي ذي الشيخوخة قد حفرتْ آثارها العميقة هنا وهناك على جلدي:
... الشعر ابيضَّ، وكان ينسدل خصلات سوداء.
... ما عادت ركبتاي تحملانني،
... ولا عادت ترقص خفيفةً كالغزال.
... ولكن ماذا عساي أفعل؟
... محال أن يحدث هذا.
...
أحب الحسن ... كان هذا نصيبي من الحياة،
مضيئة، ساطعة، وجميلة، كذلك كان حظي؛
لأنني أحب الشمس.

* * *

أيها الحلم، فوق أرض يسودها ظلام الليل
تسير رفيق الخطى،
عندما تحيط بكل من يقدرون على النوم
وتشمل منهم العيون والحواس

أيها الإله المحبوب! حقًّا، لقد (عرفتني)
العذاب بكل وضوح!
لأن القدرة بعيدة ...
...
الأمل وحده يمنعني أن أشارك ...
إلا أن (...) شيئًا من (حياة؟) الآلهة ...

(الأجزاء الباقية ناقصة تمامًا)

وليس من العدل يا ميكا
(أن تنسَيْ صداقتي)، لكنني لن أتخلى عنك،
وإن كنت الآن قد اخترت حب نساء البنتيليين،
...
...

(البقية مهلهلة) ...

أنتِ يا ديكا، ضعي في شعرك باقةً جميلةً من الورد،

سافو

قطفتْها يدك في رقة ومهارة من أعشاب الشبت.
إن كل ما يزدان بالورد، تحب ربات الجمال أن ينظرن إليه،
ولكن إذا اقترب أحد بلا باقة
حوَّلن البصر عنه.

الكتاب الخامس

أحسن وضع الغطاء عليها،
الغطاء اللـيِّن.

* * *

حلمًا رويت لك، يا أفروديت.

* * *

ماذا يريد العصفور، يا ابنة باندیون؟[1]

* * *

البدر رأيناه في السماء في تمامه،
وعندما وقفوا حول المذبح،
...

* * *

أقبلن يا أيتها الفاتنات
وربات الجمال ذوات الشعر الأسود!

* * *

[1] باندیون: لعله أحد ملوك أثينا الأسطوريين، ووالد «فيلوميلا» التي تقول الأسطورة إنها تحولت إلى عصفور أو بلبل. فلقد قطع تيريوس لسانها ليمنعها من الكشف عن اغتصابه لها ولكنها استطاعتْ أن تسجل ما حدث لها كتابةً على القماش، وانتقمتْ لها شقيقتها بروكني بأن قدمت إلى تيريوس لحم ابنهما، وقد حولتْه الآلهة إلى هدهد، كما حولت الشقيقتين إلى بلبلين.

الفتاة ذات الصوت العذب ...
الذهب العاطل من القيمة الإنسانية
يسكن عندنا، ليضرَّ بنا ويؤذيَنا.

* * *

كذلك كانت ترقص فتيات كريت
على الوقع خفيفات الأقدام
حول المذبح الجميل،
وخطاهن تلمس براعم الأعشاب الطرية.

* * *

الآن قد غاب القمر
وغابت الكواكب السبعة.
انتصف الليل،
ووقت الانتظار فات.
وأنا أنام وحدي.

* * *

حقًّا، وددت لو أموت!
كان نشيجها يمزق القلب عندما ودعتْني
وقالت لي:
«آه ما أتعس حظنا!
سافو، حقًّا إنني أفارقك بالرغم مني!»
أجبتها قائلةً:
«اذهبي راضية النفس، وفكري فيَّ
من حين إلى حين!
أنتِ تعلمين، كم كنت أرعاك
أم تراك لا تعلمين؟
إذن فلأذكرك (لأنك تنسين)
بكل ما عشناه هنا من سعادة وجمال.
ضفائر عديدة من البنفسج

والزعفران
وضعتها في شعرك ... عندما كنت تعيشين بجانبي ...
عقود كثيرة
من الورود المعطرة
طوَّقت بها جيدك الأملس،
وبزيت المرِّ الفاخر
دهنت بشرتك الجميلة،
وبالطيب الذي يسمونه طيب الملوك.
ورقدت على سرير ناعم
بجانب (؟) ... رقيقة،
واشتقت إلى ...
ما من (رقص أو حفل زفاف)، ما من عيد مقدس،
ما من (جدول ماء) ...
لم نزره معًا،
ما من بستان، لم نسمع فيه أنغام الصُّنوج
ولم (تتردد) فيه أناشيدكن ...»

* * *

أحقًّا إنه ...
...
جونجيلا ...
انظروا، الرب أرسل لي علامةً،
يفهمها كل إنسان ...
دخل عليَّ هرمس[٢]
(معين) كل المتعَبين،

[٢] هرمس: إله الحظ والخِصب والثروة، وحامي التجار واللصوص، ورسول الآلهة إلى البشر، وقائد الأرواح إلى عالم الموتى. يُحكى أنه ترك المهد في يوم مولده فقتل سلحفاةً، واخترع القيثارة، وسرق قطيعًا من البقر يملكه أبولو، ثم عاد لينام في مهده!

كما يدخل الرسول،
وتكلمتُ فقلتُ له:
«سيدي، مرحبًا بك!
بحق الآلهة التي تسكن هناك في العالم السفليِّ!
ما عدت أجد هنا أثرًا للبهجة،
(تعذبت) كثيرًا.»
في نفسي يحيا شيء كالشوق إلى أن أموت،
وأرى في وقت قريب
شواطئ «أخيرون»[٣] النديَّة
التي تُكللها أزهار اللوتس
وأهبط إلى منزل هاديس[٤]
(ثم أعود)، وأفتش (...)
حتى لا يستطيع أحد ...
...

* * *

كثيرًا ما تبعث إلينا — إلى وطنها —
بأفكارها من ساردِيا،
ويخطر ببالها كيف عشنا قديمًا مُتَّحدين:
شبيهة بالآلهة تبدين أنتِ لها،
أغنيتك كانت تجدها أريجونتا أجمل ما في الوجود.
رقيقة وجميلة تعيش هي الآن بين نساء ليديا،
مثلما يغمر ضوء القمر بأصابعه الوردية
ضوء كل النجوم

[٣] أخيرون: هو فيما تروي الأساطير اليونانية أحد الأنهار التي تجري في العالم السفلي.

[٤] هاديس: إله العالم الآخر، وهو إله بشع قاس، ولكنه مع ذلك عادل لا يعادي البشر. فلم يعرف اليونان شيئًا عن فكرة الشيطان التي جاءتْ بها الأديان فيما بعد. وهو يحكم أرواح الموتى في العالم السفلي مع زوجته برسيفونه، وتطلق الكلمة أيضًا على مملكة الموتى والعالم الآخر نفسه.

بعد غروب الشمس،
ويفيض نوره على البحر المالح
وعلى مروج الورد،
هناك ينزل الندى وتزدهر الزهور
والبقدونس الرقيق،
وزهر اللوتس العسلي ببراعمه.
تظل تتجول هنا وهناك،
وتتذكر أثيس الصديقة بقلب حزين
يملؤه الشوق، فيزداد حزنًا.
يرتفع صوتها مناديًا:
«تعالَيْنَ إليَّ!»
غير أن البحر الهادر، الذي يفصل بيننا،
لا يحمل النداء إلينا،
ما من أحد يسمعه.
لا ريب أن قَوامك البديع
في جمال أنصاف الآلهة،
يبدو لكل إنسان
عندما تلبسين ... ثوب العيد.

* * *

...
وسقتْنا شراب الآلهة من جرَّة ذهبية
وبيثو (سقى كل إنسان)
بيديه ...

إلى ابنتها كلايس

...
هكذا قالت لي ذات يوم:
أجمل زينة في الشباب

أن تجعل الفتاة جدائل شعرها
خصلات تربطها بشرائط أُرجوانية،
بديعة، بديعة جدًّا مثل هذه الزينة.
فإن كان شعر الصبية أشقرَ
بدا أنصع من ضوء المشاعل،
أنسب الباقات، الزاهية كالبراعم
هي الميترا،
إلا أن مثلك، يا كلايس،
تتمنى الآن لنفسها (باقةً) زاهيةً،
من ساردِيا،
(لعلها) توجد في مدن ليديا
(لكنها شحيحة حيث نعيش).
ما من باقة زاهية أملكها لك، يا صغيرتي!
ومن أين لي بمثل هذه الزينة؟
(ألق بالذنب) على حاكم ميتيلينه
(لأن الأمور قد بلغت هذا الحدَّ).
... قد جعلوا المدينة كلها (؟) ...
عديدة هي الآثار التي تحملها مدينتنا
منذ أجبرتْ قوة الكليانكتديين
الكثيرين على الفرار:
عندها بدأت تعاستنا.

إلى أفروديت

زينة للرءوس من بلاد اليافونيين (؟)
زاهية بلون قرمزي، مسقية بالعطر.
وهدايا جميلة

أرسلها إليك منازيس اليافونيُّ
من فوكايا.[٥]

* * *

إن كنتَ حبيبي فاختر لك
من بين الصغيرات زوجةً؛
فلست أحتمل الحياة بجانبك
وأنا أكبرهن سنًّا.

* * *

أنا نفسي
كنت أكلل رأسي بالزهور،
كنت صبيةً.
ارفعي الآن صوتك
أنت يا قيثارتي الإلهية!

(بداية أغنية مفقودة)

يقولون إن ليدا
قد عثرتْ ذات يوم
على بيضة مظلمة وهائلة ...

(بداية أغنية)

النوم الأسود بالليل
(يغمض) عندئذٍ أعيننا ...

نواح على أدونيس

الفتيات: آخ! أدونيس[٦] يموت،
شابًّا وجميلًا!

---

[٥] فوكايا: أقصى المستعمرات الأيونية شمالًا على ساحل آسيا الصغرى.

[٦] كان أدونيس في الأسطورة اليونانية هو العاشق الشاب لأفروديت، وهو روح من أرواح النبات أو الخضرة، وُلد من شجرة الآس التي أصبحت فيما بعد رمزًا له. كانت فواكه الخريف تقدم إليه وأحواض

كيبريس، وماذا نفعل؟
رئيسة الجَوقة: اضربن صدوركن،
ومزقن، يا فتيات،
ثيابكن!

* * *

... غير أني لست من النوع
الذي يعلن غضبه؛
قلبي يحتمل في صمت ...

تحذير لابنتها

... ما من أغنية حزينة
يصحُّ أن تتردد في البيت
حيث يخدم الإنسان ربات الجمال.
... ذلك ما لا يليق بنا.

* * *

(عندما رأت سافو)
طفلًا جميلًا
يقطف باقة من الورد
...

أفروديت تتكلَّم

أنت ومعك إيروس رسولي، أنتما ...

الزهور تسمى باسمه. وكان في كل سنة يموت ويحيا من جديد. وقد كانت عبادته لها أهميتها في جزيرة لِسبوس، ولا شك في أن سافو كتبت بعض الأغاني التي تنشد له سواء من جانبها وحدها أو مع الجَوقة.

الكتاب السابع

الصبيَّة على المِغزل

آه يا أمي الحلوة،
ما عدت أستطيع تحريك المغزل
من شوقي إلى الصبيِّ،
وهذا ما قدَّرتْه أفروديت.

أغاني الزفاف

«أبيثاليا»

كما تحمرُّ التفاحة،
التفاحة الحلوة،
على الشجرة العالية،
على أعلى غصن،
نسي القاطفون أن يجنوها.
آه لا! لم ينسَوها
هم لم يستطيعوا فحسب أن يبلغوها.

* * *

مثلما يتفوَّق المغني من لِسبوس على الجميع ...
...

* * *

يا صبية، أنت يا جميلة، يا فاتنة أنت!

* * *

مثلما تدوس أقدام الرعاة
على سنبلة البريَّة
وهم يرعون أغنامهم على المنحدر،
كذلك الزهرة القرمزية ملقاة على الأرض!

* * *

وهناك على الشاطئ
نمت شجرة العلَّيق بثمارها الذهبية.

* * *

ليثو ونيوبه كانتا صديقتين حبيبتين وخيِّرتين.

* * *

أنت يا نجمة المساء،
تعيدين إلى الوطن
كل ما شتَّتَتْه (إيوس)[1] المشعة:
تعيدين الأغنام،
تعيدين الماعز،
تعيدين الابنة إلى أمها!

* * *

البلبل، رسول الربيع،
يغني باشتياق ...

* * *

هناك يقول الأب: «خذها إذن!»

* * *

[1] إيوس، إلهة الفجر عند الإغريق، ابنة هيبريون والتيتان «العملاق» باللاس. ويسميها الرومان أورورا أي الفجر. يقال إنها ظلت تبكي على ابنها ممنون الذي قتله أخيل فكانت دموعها تتساقط قطرات من الندى.

ارفعوا سقف الخدر!
— هيمانيوس![٢] —
ارفعوا السقف، أيها البناءون، إلى أعلى!
— هيمانيوس! —
تمامًا كالإله أريس،
هكذا يتقدم العريس
أكبر بكثير من أكبر الرجال!

* * *

حارس الباب قدمه سبعة أمتار،
جلد حذائه من خمسة ثيران،
حذاؤه فصَّله عشرة من صناع الأحذية.

* * *

عندما ينتشر الغضب في الصدر،
ضع الهراء في اللجام![٣]
بأي شيء أشبِّهك،
يا عريس، يا حبيب؟
بالعود اللَّدن أريد أن أشبهك!

* * *

اعلم يا عريس أنه ما من فتاة أخرى تشبهها!

* * *

(للعريس): أيها العريس السعيد،
العرس الذي اشتقت إليه
تحتفل به اليوم،

---

[٢] هيمانيوس: كلمة تدل على أغاني الزفاف التي كانت تشدو بها صديقات العروس وأهلها أمام مخدع الزوجية.
[٣] أي الزم الحذر في الكلام.

العروس التي طالما اشتقت إليها!
ملك يديك!

* * *

(للعروس): ساحر هو جمالكِ،
يا عروس،
النظرات في عينيك
رقيقة،
الوجه البديع يشع نورًا
كأنما زاده الحب جمالًا،

* * *

(للعريس): وشرفًا عظيمًا
أهدتْك أفروديت!

* * *

(للعريس والعروس): بالهناء يا عروس!
وأنت يا عريس،
بالرفاء والهناء!
لِتبتسم لك الحظوظ يا عروس
ولْتبتهج أيها العريس!

* * *

ارحموا هذه الفتاة ...
... أيها الخُطَّاب ... أنتم يا أمراء المدينة.

العروس:

يا زمان الصبايا، تكلَّم،
يا زمان الصبا، قل،
إلى أين تسرع بي؟

العذرية:

«لن أعود إليك أبدًا،
أبدًا لن أعود.»

يا نجمة المساء،
يا نور العرس!
كم يشبه أدونيس!

* * *

أنتِ يا أجمل من كل النجوم!

* * *

لتسترح على صدرك رفيقتك الناعم
أنت أيها الرقيق.

* * *

طعام الآلهة كان هناك
ممزوجًا في الدنِّ،
الإبريق حمله هرمس
وصبَّ الخمر للآلهة.
هم جميعًا،
والكئوس في أيديهم
قدَّموا الشراب
ودعَوا بالبركة للعريس.

شذرات غير مؤكدة

إروس، مخلِّص الأعضاء،
عاد يَهيم بي في كل مكان،
حلو-مرٌّ، لا يروَّض،
حيوان وحشي.
كان ثقيلًا عليك، يا أثيس،
أن تكون بفكرك إلى جانبي،
فرحت تسعى وراء أندروميدا.
غناؤها أحلى بكثير من رنين القيثار.

* * *

«أذهب» من الذهب ...

* * *

أكثر بياضًا من البيضة ...

* * *

سافو، لم (تنادين) على أفروديت السعيدة؟
... لكنك نسيتني!
كانت رغبتي على الدوام، أن تكون بخير ...
... (أنت) همِّي.
مثل هذا الشاب
الذي اعتلى مركبته يومًا
قاصدًا طيبة.
(هو): أريد أن أقول شيئًا،
لكن يمنعني الخجل.
(هي): لو أنك أردت ما هو جميل وحق،
لو لم يرد لسانك أن يقول الشرَّ،
لما تكلَّم الخجل من عينيك
بل لنطقتَ بالحق والعدل.

* * *

تقدَّم نحوي، يا صديق،
وأرنا السحر
الذي يطلُّ من عينيك!

* * *

عندي طفلة جميلة
شبيهة بالورود الذهبية،
قَوامها بديع،
كلايس هو اسمها،
وهي كل شيء لي،
ولست آخذ ثروة ليديا
ولا لِسبوس الجميلة،

لو كتب عليَّ
أن أعطيها ثمنًا لها ...

* * *

تعالَين هنا، يا ربات الفن
واتركن (بيت الأب) الذهبي.

* * *

الآن تزدهي الأرض
وتزدان بالأكاليل.

* * *

من بقي بلا دموع
كان رضا الآلهة من نصيبه.
...

أقوال مأثورة

لكتَّاب مختلفين عن سافو

يقول باوزانياس[1] إن سافو، من لِسبوس، قد تغنت بالحب (إيروس) أغنيات كثيرة حافلة بالمتناقضات.
ويقال إنها ذهبت إلى أن «إيروس» ينحدر أصله من جي (الأرض) وأورانوس (السماء).

ويروي شاعر هلِّيني في القرن الثاني قبل المسيح أن سافو ونيكاندر يتحدثان عن حب إلهة القمر سيليني في الكتاب الثاني عن أورويا.

ولقد عبرت سافو عن الحب أجمل تعبير حين وصفته بأنه حلو-مر، وأنه «مهدِّئ الآلام»، وإذا كان سقراط يصف «الإيروس» بأنه سفسطائي، وأفلاطون يقول عنه (على لسان ديوتيما في محاورة المأدبة) إنه يزدهر بالألم والعذاب، فقد وصفته سافو بأنه «رواية الأساطير».

[1] باوزانياس: صاحب «وصف هيلاس أو بلاد اليونان» الذي يُظن أنه كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد، وهو أشبه ما يكون بدليل سياحي لمعظم أجزاء بلاد اليونان.

ويحكى أن الشاعر هزيود وسافو قد ذهبا إلى أن بروميثيوس بعد أن انتهى من خلق البشر سرق النار من الآلهة وأعطاها لهم؛ وغضبت الآلهة فسلَّطتْ على الأرض وباءين، كان أحدهما المرض وكان الآخر النساء …

سيرفيوس[٢]

وهناك كثير من الأخبار المأثورة عن سافو، وهي أخبار متضاربة في معظم الأحيان، تُروى على لسان الكتَّاب والفلاسفة والمؤرخين، ويستند بعضها إلى شذرات متفرقة من أشعارها، ويُروى بعضها الآخر دون سند مأثور من الشعر أو التاريخ. ومع أن معظم هذه الأخبار يصور الشاعرة في صورة منسوجة من الخرافة والخيال، فإنها تلقي على كل حال شيئًا من الضوء على شخصيتها ومدى ما تمتعتْ به على مرِّ الأجيال من حب وإعجاب.

فهناك من يروي عنها مثلًا أنها قالت عن إله الأنهار أخيلوس إنه كان أول من اخترع مزج الخمر. ويبدو أن تردد كلمة الذهب في كثير من صورها الشعرية قد جعلهم يقولون على لسانها إن الذهب ابن الإله الأكبر زيوس، وإنه يظل خالصًا من الصدأ، بل إنها قد بيَّنت ذلك بنفسها على حد تعبير باوزانياس.

ويظهر أن طبيعتها الحزينة المفعمة بالشوق والشجن قد ساعدت على رواية بعض الأخبار التي تتحدث عن الموت على لسانها. فأرسطو مثلًا في كتاب الخطابة (الكتاب الثاني، ٢٢، ١٣٩٨ ب٢٧) يروي على لسانها أن الموت شيء فظيع، وأن الآلهة أنفسهم هم الذين حكموا بذلك على البشر، ولو أن الموت كان شيئًا جميلًا، لماتوا هم أيضًا. ومثل هذا القول لا يُستبعد منها، فالإحساس بتجربة الموت ظاهر في أشعارها، يؤثر في النفس بمثل ما تؤثر كلماتها عن الشيخوخة وضياع الشباب.

وليس عجيبًا أن نجد حنينها الحزين إلى الوحدة والظلام يؤثر ببساطته وصدقه على الكثيرين من بعدها. فليبانيوس[٣] يتمنى لنفسه أن يطول عليه الليل كما طال على سافو من قبل، ربما ليعيش فيه مع أحزانه التي يشفق عليها من شعاع النهار.

---

[٢] سيرفيوس ماريوس هونوراتوس: المشهور بسيرفيوس، نَحْوي لاتيني من النصف الثاني للقرن الرابع الميلادي، صاحب شرح مطول لأعمال فرجيل، يشتمل على معلومات واسعة في التراث اليوناني والروماني.

[٣] ليبانيوس الأنطاكي (حوالي ٣١٤–٣٩٣م): درس في أثينا ثم افتتح مدرسة للخطابة في القسطنطينية، له مؤلفات عديدة أحدها عن حياة الخطيب اليوناني الأشهر ديموستينيس.

ومن الثابت أن سافو كانت تهيم حبًّا بالورود والأزهار، وأنها لم تكن تجد للثناء عليها خيرًا من تشبيه الفتيان الحسان بالأزهار، كما يقول فيلوستراتوس[٤] بحق (الرسالة ٥١).

ويظهر أنه كان من طبعها أيضًا أن تأخذ تشبيهاتها من عالم النبات والأزهار والثمار: فالعروس عندها تفاحة لم يجنها القاطفون، لا لأنهم لم يشتهوها، بل لأنهم لم يستطيعوا الوصول إليها كما تقول القصيدة المشهورة. أما العريس فهي تحب دائمًا أن تصوره في صورة البطل، عظيمًا يصطدم رأسه بالسقف، خفيفًا ورشيقًا مثل أخيل.

وانعكست هذه الصور الحسية المستمدة من العالم العضوي الحي على أسلوبها الذي وصفه القدماء بأنه يريح الأذن، ويجعل من الكلمات الجميلة متعًا محسوسةً للسمع والقلب، وقد استطاعت أن تُدخل هذه الكلمات في نسيج شِعرها، بل لقد خلقت بعض هذه الكلمات خلقًا، على حدِّ تعبير ديمتريوس.[٥]

وليس عجيبًا بعد هذا أن تهيب شاعرة الجمال في معظم قصائدها بإلهة الجمال، وأن تمجدها وتتغنى بها في أكثر من مناسبة، بل إن هيمريوس يذهب إلى أنها كانت دائمًا تفتتح بها أغانيها. ولقد أُثر عن سافو أنها كانت الوحيدة بين النساء التي يستيقظ عشق الجمال في نفسها عند سماعها لأنغام القيثار. ومن الطبيعي أن يقول القدماء عنها إنها قد وهبتْ شِعرها كله لأفروديت كما وهبتْه للعشاق في كل زمان، وأن تختار الموضوع الخالد لأغانيها، ألا وهو الجمال وسحر الجميلات.

---

[٤] فيلوستراتوس: اسم يطلق على أربعة أشخاص ينتمون إلى عائلة عاشت على جزيرة ليمنوس في القرنين الثاني والثالث الميلاديين. وهناك مؤلفات عديدة تُنسب إلى هذا الاسم من بينها «حياة السفسطائيين» أي حياة الخطباء والبلاغيين من بروتاجوراس إلى زمن المؤلف.

[٥] ديمتريوس الفاليري (حوالي ٣٥٤ إلى ٢٨٣ق.م.): تلميذ ثيوفراسطوس (وهو بدوره تلميذ أرسطو وخليفته في رياسة مدرسة المشَّائين وصاحب كتاب الطباع المشهور)، كتب في السياسة والخطابة كما كتب عن هوميروس وجمع خرافات إيزوب. حكم أثينا نائبًا عن كاسندر من عام ٣١٧م حكمًا عادلًا مستنيرًا. وعندما سقطت المدينة في يد ديمتريوس بوليكريتيس في عام ٣٠٧م ذهب إلى المنفى ثم اتصل ببلاط بطليموس الأول في الإسكندرية حيث كان له أثره الكبير على مدرستها، وربما يرجع إليه الفضل في تأسيس متحفها.

شواهدُ تاريخية

في زمن واحد (مع ألكايوس وبيتاكوس) ازدهرت سافو، هذه الإنسانة المدهشة؛ لأنه على قدر ما تبلغ الذاكرة التاريخية — وهذا عهد بعيد — لم تستطع امرأة واحدة بقدر ما نعلم أن تقيس نفسها بها في الشعر.

وقد حكم المدينة (ميتيلينه) في تلك الأزمان طغاة كثيرون على أثر الاضطرابات الداخلية ...

سترابو، ١٣، ٦١٧[٦]

السنة الثانية من الاحتفالات الأوليمبية الخامسة والأربعين (=٥٩٨ق.م.): زمن ازدهار الشاعرة سافو والشاعر ألكايوس.

أويزيبوس الهيرونيمي، ٢٦٥–٣٤٠م

يقول خاميلئون (وهو أحد تلاميذ أرسطو ومؤرخ من القرن الرابع قبل المسيح) في كتابه عن سافو: إن البعض يزعمون أن هذه الأبيات وجهها الشاعر أناكريون إليها، كما يقول إن سافو ردَّت عليه بهذه الأبيات:

يا ربة الجمال على عرش من ذهب،
أنت نفسك منحت الألفاظ لتلك الأغنية
التي أنشدها المغني العجوز من ثيوس،
المشهورة بحق جمال نسائها،
المغني المعروف.

أما أن هذه الأغنية ليست لسافو، فذلك ما يتضح لكل إنسان ...

أثينايوس، ٥٩٩ج[٧]

---

[٦] سترابو (حوالي ٦٤ق.م.–١٩م): مؤرخ ورحَّالة وجغرافي يوناني، اشتُهر بكتابه الجغرافي الكبير الذي وصف في أبوابه السبعة عشر معظم بلاد العالم الروماني والعالم القديم.

[٧] أثينايوس: كاتب يوناني، مؤلف «الديبنو سوفيستاني» أو السفسطائيين على الغذاء في خمسة عشر كتابًا، يصف فيه اجتماع ثلاثة وعشرين فيلسوفًا يتناقشون في شئون الطعام والأدب والتاريخ، ويُعَدُّ بما حوى من طرائف وحكايات من المصادر المهمة في تاريخ الإغريق وعاداتهم.

هنا يخطئ هرميسيا ناكس حين يزعم أن سافو وأناكريون[٨] عاشا في عصر واحد، مع أن أناكريون قد عاش على عهد كيروس (٥٢٩–٥٥٨م) وبوليكراتس (٥٢٢–٥٣٧م) بينما عاشت سافو على عهد ألياتيس (حوالي ٥٦٠–٦١٠م) والد كرويزوس.

أثينايوس، ١٣، ٥٩٩ج

٣٤١ سنةً، منذ أن تولى ألياتيس السلطة على الليديين، عندما كان أرسوكليس أرخون في أثينا.

منذ أن رحلت سافو إلى صقلية، بعد نفيها من مدينة ميتيلينه، عندما كان كريتياس الأكبر حاكمًا (أرخون) على أثينا، وكان الجاموريون (ملاك الأرض) قد استولَوا على السلطة في سيراكوزا.

(الرسالتان ٣٥ و٣٦ مارمور باريوم)[٩]

انحدرت سافو من مدينة ميتيلينه، في جزيرة لسبوس، وكان أبوها هو إسكاماندروس أو إسكاموندرونيموس كما يقول البعض. وكان لها ثلاثة إخوة: أريجيوس، ولاريخوس، وخاراكسوس. وكان هذا الأخير أكبرهم سنًّا، ويقال إنه أبحر إلى مصر، وهام حبًّا بفتاة تدعى دوريخا أنفق عليها أموالًا طائلةً، وكانت سافو تحب شقيقها الأصغر لاريخوس أكثر من أخويه، وكان لها ابنة تدعى كلايس، على اسم أمها. وقد اتهمها البعض بالشذوذ الخلقي

[٨] أناكريون: شاعر من القرن السادس ق.م. ولد في تيوس في جزيرة أيونيا ثم هاجر منها إلى أبديرا، ولكنه قضى معظم حياته في بلاط بوليكراتيس ملك ساموس ثم في أثينا في بلاط هيبارخوس. لم يبقَ من أشعاره غير شذرات قليلة وهي أغاني خفيفة مرحة تدور حول الحب والخمر وتتميز بالوضوح في التعبير والإيقاع. من أكثر الشعراء الذين كثر مقلدوهم في العصور المتأخرة، حتى إن هناك مجموعةً من القصائد تبلغ الستين وتُعرف بالأناكريونتا.

[٩] مارمور باريوم (عمود باروس المرمري): أحد الأعمدة المرمرية المسماة بألواح أروندل التي عَثر عليها أحد أعوان اللورد أروندل في عام ١٦٢٧م وأُرسلت إلى إنجلترا. وقد وجد هذا العمود في جزيرة باروس، وترجع أهميته إلى وجود نقوش تاريخية عليه إلى جانب نقوش تتصل بالأدب الإغريقي، ذُكر في أحدها خبر هروب سافو من مدينة ميتيلينه إلى جزيرة صقلية.

والجنسي. أما من ناحية المظهر فيبدو أنها كانت بشعةً وشديدة القبح، إذ إن وجهها كان أسود السِّحنة، كما كان جسدها ضئيلًا جدًّا.

...

عن ... على نحو ما تخبط خاميلئون (مؤرخ من القرن الرابع ق.م.) في أقواله عنها، تتحدث وتستخدم اللهجة الأيولية، كتبتْ تسعة كتب من الشعر الغنائي ...

سافو، ابنة سيمون، وفي رأي البعض ابنة أويمينوس، أو إيريجسوس، أو إكرتيوس، أو سيموس، أو كامون، أو إيتارخوس، أو إسكاماندرونيموس، كانت أمها تدعى كلايس. وهي شاعرة غنائية، تنحدر من جزيرة لِسبوس في إيريسوس، وقد ازدهرتْ في الأعياد الأوليمبية الثانية والأربعين (٦٠٨–٦١٢ق.م.)، في الوقت نفسه الذي عاش فيه ألكايوس وسزيخوروس وبيتاكوس. كان لها من الإخوة ثلاثة: لاريخوس، وخاراكسوس، وأريجيوس.

تزوجت رجلًا بالغ الثراء، كركيلاس، كان قد جاء من أندروس، وولدتْ له ابنةً سمِّيت كلايس. كانت لها ثلاث رفيقات وصديقات هن: أثيس، وتليزيبا، وميجارا. وتزعم ألسنة السوء أن علاقة الصداقة التي كانت تربطها بهن كانت علاقة مَشينة. أما تلميذاتها فهن أناجورا (والمقصود بها أناكتوريا) من ميليه (ملطية)، وجونجيلا من كولوفون، وأنييكا من سالاميس. وقد وضَعتْ ثمانية كتب من الشعر الغنائي كما كتبتِ الأبيجرام، والأليجيا، واليامب والمونوديا.

سويداس[١٠]

إيروس «عشق» سافو ... هل كان شيئًا إلا فن الحب، الذي كان سقراط فيه أستاذًا؟ أريد أن أقول إن كليهما قد مارس الحب مع أشباهه، فمارست سافو الحب مع النساء، ومارسه سقراط مع الرجال، وكلاهما قال إنه يحب الكثيرين وإن كل ما هو جميل يأسره. ذلك أن ألكيبياديس وخارميدس وفايدروس كانوا بالنسبة إلى سقراط ما كانته جيرينا وأثيس وأناكتوريا بالنسبة إلى سافو اللسبية، وكما كان لسقراط منافسوه مثل بروديكوس وجورجياس وتراسيمخوس وبروتاجوراس فقد كان لسافو منافساتها مثل

[١٠] سويداس: صاحب معجم أو دائرة معارف يونانية كبرى جُمعتْ في أواخر القرن العاشر، وتضم مقالات قيمةً في الأدب والتاريخ اليونانيين.

جورجو وأندروميدا. إنها تعتب عليهن أحيانًا، وتعارضهن أحيانًا أخرى، وتتحدث في سخرية تمامًا كما كان يفعل سقراط.

ماكسيموس التبري

كانت مهمة سافو دون غيرها أن تغنيَ في عيد أفروديت على القيثار وأن تهيئ خدر العروس. وكانت سافو تدخل حجرة العروس بعد انتهاء الغناء فتعقد الستار، وتهيئ الفراش، وتجمع بعض الفتيات في حجرة العروس، وتأتي بأفروديت على عربة الخاريين Charites يصحبها موكب العازفين (الإيروتيين) وقد وضعت في شعرها حتى المَفرِقَين زهرات السنبل البرية. وتترك الباقيَ منه حرًّا تحركه الريح إن شاءت، أما العازفون فتزين أجنحتهم وخصلات شعرهم بالذهب ويدفع من يتقدمون منهم العربة ويهزون المشاعل في أيديهم على الإسراع.

يصف أفلاطون بن أريستون الشاعرة، ابنة إسكاماندرونيموس، في أحد كتبه بـ «الحكيمة». ولكنني سمعت أن هناك في جزيرة لِسبوس سافو أخرى كانت رفيقةً أو صاحبة Hetaira، ولكنها لم تكن شاعرةً.

إليانوس[١١]

تعالَين إلى الساحة المقدسة، يا فتيات لِسبوس،
إلى مرج هيرا الظليل، وأسرعن الخطى!
عليكن أن ترقصن هناك تكريمًا للآلهة.
سافو هي التي ستقودكن بغنائها على قيثار من ذهب.

(مجموعة بلاتينا)[١٢]

[١١] كلاوديوس إليانوس: ترجع شهرته إلى حوالي عام ٢٠٠م صاحب «المنوعات التاريخية»، وقد وضعها باليونانية في أربعة عشر كتابًا، وتناول فيها أشهر الشخصيات التاريخية والأدبية تناولًا شاملًا، وإن كان يخلو من الدقة والتمحيص.

[١٢] مجموعة بلاتينا: نسبة إلى مكتبة بلاتينا في مدينة هيدلبرج بألمانيا؛ حيث اكتشف العالِم الفرنسي سالمازيوس في القرن السابع عشر مجموعةً مشهورةً من الأشعار اليونانية لثلاثمائة وعشرين مؤلفًا، كان كونستانتينوس كيفالاس قد جمعها في القرن العاشر بعد الميلاد.

أحسَّ صولون الأثيني بالبهجة عندما غنَّى حفيده إكسيكستيدس في إحدى المآدب أغنيةً من أغاني سافو، فطلب من الصبي أن يعلِّمه هذه الأغنية، فلما سئل في ذلك قال: «لكي أتعلمها فأستطيع بعد أن أموت.»

أوفيد: رسالة سافو إلى فائون

لا بنات بيرا ولا بنات ميثيمنا،
ولا موكب الفتيات من لسبوس كلها،
يستطعن اليوم أن يُدخلن السرور على قلبي.
كلهن سواء عندي، أناكتوريا وكيدرو،
والعين ما عادت تبتهج بأثيس كما كان العهد بها من قبل،
ولا عادت تفرح بالكثيرات غيرها
ممن كنت أحبهن في براءة ...
...
إن كان القدر القاسي قد حرمني من جمال الجسد،
فإن نبوغي (في الشعر) يعوضني عن هذه العيوب جميعًا.
إن بدا لك أن قَوامي ضئيل، أو أنني أحمل مقياس اسمي
الصغير فلا تنظر إليَّ نظرة الاحتقار.
حقًّا إنني ضئيلة الحجم، لكنني بلغت باسمي مجدًا يملأ البلدان جميعًا،
ولذلك أحمل في نفسي مقياس اسمي.
وإذا لم أكن بيضاء البشرة، فقد استطاع
بيرزيوس أن يحب أندروميدا
التي جعلت بلده كيفايا بشرتها سمراء.
كنت في السادسة من عمري، عندما سقيت عظام
أبي بالدموع.
فقد انتزعه الموت وهو في شبابه ...
شقيقي بدَّد أمواله حبًّا في غانية،
وزاد في المصيبة أنه جلب العار على نفسه.

إنه يهيم فقيرًا في البحر المعتم إلى حيث يقوده المجداف،
وكما خسر المال، يعود الآن فيبحث عن الربح.
أنا التي نصحته بإخلاص وبصَّرته بالخير يكرهني،
هذا جزائي على صراحتي وحَدَبي عليه!
وفي الوقت الذي أفتقد فيه أشياء، يضنيني فقدها بغير حدٍّ،
يأتي هم ابنتي الصغيرة، ليضاف إلى سائر الهموم.
انظر، ها هو ذا شَعري منثور على رقبتي بغير عناية،
لا حجر برَّاق يزين يدي ولا خاتم.
ردائيَ اليوم فقير، شعري عاطل من الذهب،
وهدايا بلاد العرب لا تعطر خُصُلاتي.
لمن أزيِّن نفسي، من الذي أرجو رضاه؟
بعيد أنت عني، يا من له وحده كنت أصنع كل هذا.
خفت يا أورورا أن تسرقيه بدلًا من كيفالوس،
ولو لم تمنعك فريستك الأولى لفعلتِ!
لو أن فوبا رأته، وهي التي ترى في الظلام كل شيء،
لصدر الأمر لفائون أن يواصل النعاس!
ولو ملكت فينوس لخطفته في عربتها العاجية إلى السماء،
لولا أن زوجها كان سيجد فيه ما يعجب قلبه!
عندما قيل لي، ولا أعرف من قال: «حبيبك يهجرك.»
لم أستطع أن أبكيَ، لم أستطع أن أتكلم.
الدموع جفت في عيني، الكلمات احتبست في حلقي،
حزام حديدي طوَّق صدري،
ولكن عندما جاء الألم، لم أخجل أن أضرب صدري،
وأقطع شعري، وأصرخ وأصيح،
تمامًا كما تفعل الأم، عندما تحمل جسد وليدها البارد إلى المحرقة.
لكن أخي خاركسوس يشمت بي ويفرح،
ثم يمضي، لكن العين سُرعان ما تراه واقفًا أمامي،

ولكي يزيدني خجلًا من تعاستي يقول:
«ماذا يحزنك؟ ان ابنتك ما تزال على قيد الحياة!»

أوفيد[١٣]

[١٣] أوفيد (٤٣ق.م.–١٨م): من أشهر الشعراء الرومان. ولد في «سولمو»، شرقي روما، بعد موت يوليوس قيصر بعام واحد، ومات في منفاه في «تومي» على الشاطئ الغربي من البحر الأسود. من أشهر مؤلفاته «فن الحب» و«التحولات» ويعد مرجعًا في الأساطير والحكايات اليونانية والرومانية.

ملاحق

جزيرة لِسبوس

ميَّزت الطبيعة جزيرة لِسبوس عن غيرها من بلاد اليونان لتكون مهدًا لحضارة ذات طابع خاص. فشاطئها الجنوبي يقابل مدينة كيوس Ghios التي ارتبط اسمها باسم شاعر اليونان الأكبر هوميروس، وبطائفة من الشعراء والمنشدين لأشعاره عرفوا بـ «أبناء هوميروس». وإذا أطلَّت العين من شاطئها الشرقي أو من ميتيلينه إحدى مدنها الكبرى استطاعت أن تميز ساحل آسيا الصغرى الذي حكمه ملوك «ليديا» في القرن السابع قبل الميلاد، وكان لمملكتهم الغنية أكبر الأثر على الجزيرة المجاورة. أما في الشمال فتقع رءوس جبال أدراميتيا وآثار طروادة المشهورة في تاريخ الملاحم والبطولات الإغريقية. وقد هيَّأت الطبيعة للجزيرة أسباب الثراء والخصوبة والجمال، كما حماها موقعها الجغرافي من الغزو وهيأ لها نوعًا من الاستقلال الذاتي في حياتها، وساعدها على تطوير حضارتها التي وصلت إلى ذروتها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد مما سجله الفن الشعبي الذي ازدهر فيها والشعر الغنائي الذي اشتهرت به الجزيرة وارتبط باسم سافو ومعاصرها الشاعر «ألكايوس».

ألكايوس

شاعر معاصر لسافو، تحدث بعض الكتاب الأقدمين عن صلته بها وزعم بعضهم أنه أعلنها بحبه. ولد حوالي عام ٦١٠م، ويقال إنه شارك في الحرب التي دارت مع أثينا، وهي الحرب التي نشبت عندما استولت هذه على قلعة سيجيوم التي كانت تملكها جزيرة لِسبوس في مدخل الدردنيل. كما شارك في الاضطرابات السياسية التي اضطرمت في الجزيرة منذ

صباه، فقد أطاح شقيقاه أنتيمينداس وكيكس بالطاغية ميلانخروس. ولكن أخويه سُرعان ما خاب أملهما بعد موته، فقد خلفه ميرزيلوس في حكم الجزيرة، وجعل من نفسه طاغيةً جديدًا عليها، بمساعدة بيتاكوس الذي كان قد ساعدهما من قبل على تغيير نظام الحكم. وقد شارك ألكايوس في شبابه في الصراع الدائر ضد ميرزيلوس وحلفائه في أواخر القرن السابع، غير أن الثورة مُنيت بالفشل، وهرب ألكايوس ورفاقه إلى بيرا التي تبعد بضعة أميال عن مدينة ميتيلينه، حيث كتب هناك قصيدةً مشهورةً يبتهل فيها إلى الآلهة أن تحطم الطغاة، ويعبر عن أمله في الانتصار عليهم وعن إيمانه بالشجاعة والإخلاص، وبأن الرجل الحق هو الفارس والمحارب. يقول في أحد أبياتها: «إن الرجال هم حصن المدينة في الحرب.» وقامت معركة جديدة ضد ميرزيلوس انتهت بقتله. وأنشد الشاعر في غمرة الفرح يقول:

الآن ينبغي على الإنسان أن يشرب ويعتز بقوته
بعد أن مات ميرزيلوس.

غير أن الفرحة لم تتم؛ فقد جعل الثائر القديم بيتاكوس من نفسه طاغيةً جديدًا على ميتيلينه، ونشب صراع جديد بين ألكايوس سليل الأرستقراطية وبين پيتاكوس الذي اتهمه الشاعر بأنه «وضيع الأصل»، على الرغم من أن العصور التالية قد أثنت على عدالة حكمه، بل وضعته بين من سمَّتهم بالحكماء السبعة ونسبت إليه الحكمة القائلة: «اعرف «قيمة» اللحظة «المناسبة».»

وظل ألكايوس يطالب بإبعاد الطاغية، ولكن أصدقاءه تفرقوا، وغادر بعضهم البلاد إلى بابل أو مصر، حتى إن المؤرخ سترابو يروي أن ألكايوس يتحدث عن رحلة قام بها إلى مصر، وليس ببعيد أن يكون قد زارها وعمل جنديًّا مرتزقًا على عهد بسماتيك الثاني (حوالي عام ٥٦٩ق.م. في الأسرة السادسة والعشرين) الذي ثبت أنه كان يستعين كثيرًا بالإغريق، وأن بعضهم نقشوا أسماءهم على قدم أحد تماثيل أبو سمبل الضخمة، ويبدو أن ألكايوس قد استعان بألياتيس حاكم مملكة ليديا أو استعان به هذا في الاستيلاء على جزيرة لِسبوس وتخليصها من يد بيتاكوس وإعادة سلطان الطبقة الأرستقراطية إليها. ومهما يكن الأمر فقد بقي بيتاكوس عشر سنوات في الحكم، استقال بعدها من حكم مدينة ميتيلينه بعد أن نجح في إعادة النظام إليها. ويقال إنه أصدر العفو عن المنفيين قبل استقالته، وسمح لهم بأن يعودوا إلى وطنهم، فعادت سافو من صقلية، وعاد أنتيمنيداس شقيق ألكايوس من بابل، وعاد ألكايوس فاستقبله بيتاكوس بهذه الكلمات: «العفو خير من العقاب.» ولسنا

نعرف شيئًا عن حياته بعد عودته إلى الوطن وصلحه مع بيتاكوس. ولكن شعره ظل مرآةَ عصره وحياته، وهي حياة اتسمت بالجدِّ والرجولة، وانقضت في المتعة والعمل والصراع.

كلمات للقارئ

كتبت سافو أشعارها باللهجة الأيولية، وهي تختلف من وجوه كثيرة عن اللهجة الآتيكية التي كُتبت بها روائع المسرح والفلسفة في عصرهما الذهبي. ولا أكتم القارئ أنني لست من المتخصصين — بالمعنى الدقيق لكلمة التخصص — في اللغة اليونانية القديمة؛ فمعلوماتي المتواضعة فيها لا تتجاوز قراءة محاورتين من محاورات الشباب لأفلاطون، وبعض القطع المتفرقة من إكسينوفون وأرسطو، ومع ذلك فإنني أحب أن أطمئنه أيضًا إلى أنني رجعت في الجانب الأكبر من أشعار سافو إلى الأصل اليوناني، مع الاعتماد بطبيعة الحال على الترجمتين الألمانية والإنجليزية اللَّتين استطعت الوصول إليهما.

خريطة لجزية لِسبوس والأراضي المتاخمة لها. (عن أرثر فيجال، سافو حياتها وعصرها، ص١٨.)

المراجع

أغاني سافو

- النص اليوناني مع الترجمة الألمانية، نشره ماكس تروي، مجموعة كتب توسكولوم -ميونيخ ١٩٥٨م، الطبعة الثانية.

- Sappho-Lieder; 2. Ausgabe Griechisch und Deutsch Herausgegcben vox Max Treu-Tusculum Bucher, Munchen, 1958.

وعلى هذه الطبعة كان اعتمادي الأكبر في تحقيق النص وترجمته.

- س. م. بورا، الشعر الغنائي عند اليونان، أكسفورد، مطبعة كلارندون، ١٩٣٦م، ص١٤١ إلى ص٢٤٧.

- C.M. Bowra; Greek lyric poetry, from Alcman to Simonides. Oxford, Clarendon press, 1936, p. 141–247.

الصور مأخوذة عن كتاب

- Arthur Weigall, Sappho, of Lesbos, her life and times. London, Thornton Butterworth, 1937, P. 313.

هنـــداوي